التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني

أغراضه وأسراره البلاغية

إعداد الدكتور

محمد السيد أحمد عبدالله

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالزقازيق

التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني أغراضه وأسراره البلاغية

إعداد الدكتور

محمد السيد أحمد عبدالله

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالزقازيق

الملخص

تعددت مواقع كلمة العداوة ومشتقاتها في النظم الحكيم ، والتي تم انتخابها مع تعدد سياقاتها وأساليبها لغرض يناسب سياقها ومقامها ، وقد دفعني هذا إلى معرفة أغراض تلك الألفاظ التي تحمل معنى العداوة في النظم القرآني وأسرارها البلاغية .

وقد قامت الدراسة في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي التكاملي ، وذلك بحصر مواقع لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني ، وتصنيفها بحسب ما تتعلق به ، مبينا الغرض الذي من أجله سيقت كلمة العداوة ومشتقاتها في مواقعها من النظم القرآني ، وأسرارها البلاغية من حيث التعريف ، والتنكير ، والذكر ، والحذف ، وإيثار صيغة على أخرى ، إلى غير ذلك مما يتصل بعلوم البلاغة .

وقد تكون البحث من : **مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة مباحث ، وخاتمة، وفهرس** ، وقد خصصت المبحث الأول لبيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين الجن والإنس وأسراره البلاغية ، وخصصت المبحث الثاني لبيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين الإنسان وبين ربه وملائكته ورسله، وأسراره البلاغية ، والمبحث الثالث خصصته لبيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين بني آدم ، وأسراره البلاغية

، وأما المبحث الرابع فقد قصرته على بيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته المتعلقة بالإنسان والجماد ، وأسراره البلاغية .

وكان من أهم النتائج التي يسر الله للباحث التوصل إليها هي : تكرار التصريح بعداوة إبليس لآدم وزوجه وذريته في أكثر من موضع ، كان الغرض منه هو تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ، والتأكيد على ثبوت عداوته لهم ، وشدة خطورته ، وزيادة تحذيرهم من اتباع وسوسته، وكثرة وقوع لفظ (عدو) على خلاف مقتضى الظاهر بمجيئه مفردا في موقع الجمع (أعداء) ، وقد أدت صيغة الإفراد دورا مهما في الإفصاح عن وحدة الأعداء في مواجهة الحق وأنصاره ، وأنهم في شدة العداوة يد واحدة ، وعلى قلب رجل واحد ، كما ورد التعبير بصيغة الجمع (أعداء) على أصله في عدة مواضع لغرض يقتضيه سياق ومقام كل موضع ، كما كثر وصف العدو الأول وهو الشيطان بقوله (مبينا) زيادة في التنبيه والتأكيد على وضوح عداوته لبني آدم ، حيث كشف الله حقيقته لهم فحكى عنه تصريحه بما يفسد على بني آدم إيمانهم ، فكان بهذا عدوا ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة ، وقد تعددت الأغراض البلاغية لذكر لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني .

كما كثر وصف كل من الشيطان ، وفرعون ، واليهود ، والنصارى ، والمشركين بالعدو إيذانا بكثرة مفاسدهم ، أيضا كثر دوران التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته في النظم الحكيم ، وقد كانت الصفة المشبهة (عدو) هي الأكثر شيوعا في النظم الحكيم بخلاف لفظي (عداوة)، و(أعداء) اللذين قل استعمالهما مقارنة بلفظ (عدو)، وأخيرا كثر تقديم متعلق (عدو) عليه في مواضع عدة في التعبير القرآني ، إما مراعاة للانسجام والتناغم الصوتي

للفواصل ، وإما لبيان أن عداوة الشيطان مخصصة لبني آدم لا لغيرهم ، وإما للتشويق إلى معرفة المتعلق وترقبه حتى يثبت ويتمكن ويستقر في الذهن ، وإما للاهتمام بالمقدم لكونه الغرض المقصود من السياق.

Expressing the term hostility and its derivatives in the Qur'anic systems its purposes and rhetorical secrets

Dr. Preparation

Mohammed Al Sayed Ahmed Abdullah

Teacher of eloquence and criticism at the Faculty of Arabic Language in Zagazig

There are many locations of the word hostility and its derivatives in the wise systems, which were elected with a variety of contexts and methods for a purpose suited to its context and position, and this prompted me to know the purposes of those words that carry the meaning of enmity in the Koranic systems and rhetorical secrets.

My study in this research is based on the inductive analytical analytical approach, by limiting the locations of the word hostility and its derivatives in the Qur'anic systems, and classifying them according to what they are related to, indicating the purpose for which the word hostility and its derivatives were quoted in their positions from the Qur'anic systems , Male, delete, altruistic formula, etc. related to the science of rhetoric.

The second topic is devoted to the purpose of expressing the expression of hostility and its derivatives between man and his Lord and his angels and messengers. The second section is devoted to the expression of hostility and its derivatives between man and his Lord and his angels and messengers, And the third topic devoted to express the purposes of express expression of hostility and its derivatives between the sons of Adam, and his rhetorical secrets, and the fourth section, it was limited to express the purposes of express expression of hostility and its derivatives related to man and the man, and his secrets rhetorical.

One of the most important results that God pleased the researcher to reach is: repeating the declaration of the devil's hostility to Adam and his

wife and offspring in more than one place, the purpose is to remind the children of Adam, And the frequent occurrence of the word (enemy) contrary to the apparent appearance of the coming alone in the site of the collection (enemies), and the formula of individuals played an important role in the disclosure of the unity of enemies in the face of the right and his supporters, and that the intensity of enmity one hand, and the heart of one man, Plural (enemies) on its origin in several places for the purpose required by the context and position of each place, how much He described the first enemy, the devil, as saying (indicating) an increase in the warning and confirmation of the clarity of his hostility to the sons of Adam, where God revealed his truth to them and he expressed his statement about what corrupts the children of Adam and their faith, this was an enemy apparent hostility to the visionaries, Enmity and its derivatives in the Koranic systems.

The enemy was the most common in the wise systems other than the verbal (enmity), and it is the most common in the systems of the wise, And (enemies) who have less use compared to the word (enemy), and finally a lot of related (enemy) to it in several places in the Koranic expression, either to observe the harmony and harmony of vocal separators, or to show that the enmity of the devil dedicated to the children of Adam and not to others, And waiting for him to prove and be able to settle in mind, or to pay attention to the money For being the intended purpose of context

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي لا تخفى عليه عداوة أحد من أعداء الدين، وبقدرته ناصرنا عليهم أجمعين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد : -

فإن كتاب الله ـ عز وجل ـ من أجل ما تقضى فيه أعمارنا، وتصرف إليه هممنا، وتعمق فيه عقولنا ، وقد شاء الله أن أظل موصولا بكتابه أنهل من معينه ، وأكشف عن بعض من أسراره ، وقد كنت أفكر من قبل في إعداد بحث بلاغي له صلة بالحديث النبوي الشريف ، أو بديوان العرب ظنا مني صعوبة وندرة التوصل لموضوع جديد في النظم القرآني لكثرة ما ألفه العلماء في بلاغة القرآن ، فتذكرت قول الله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف: ١٠٩ ، وقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لقمان: ٢٧ ، فجعلت أطوف حول معانيه وألفاظه حتى هداني الله إلى هذا الموضوع الذي نحن بصدد الكشف عن بعض من أسراره وأغراضه ، مع علمي بأن هذا الكلام ليس بكلام بشر ، وإنما كلام رب العالمين الذي بلغ الدرجة العليا في الفصاحة والبلاغة ، وهذا يتطلب مني أثناء إظهار بعض من أغراض ودقائق لفظ العداوة ومشتقاته أن أحسب لكل كلمة حسابها ، وأن أراجع فيها نفسي خشية من زلل القلم ، أو خطأ في التأمل ، ومعاودة النظر في كلام أهل العلم .

والذي يتدبر كلام الله عز وجل يجد أن الله قد نص في كتابه العزيز على ما يحقق السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة ، وإن مما نص عليه القرآن الكريم عداوة إبليس لآدم وزوجه ، وعداوة الشيطان لبني آدم ، وإن من أهم الواجبات على المسلم أن يعرف من عدوه ، حتى يحذره ، ويعرف وسائله التي يستخدمها في هجومه عليه ، وبدون التعرف على مكايده وحيله لا يستطيع المسلم أن يجاهده ويتغلب عليه ؛ لأجل هذا صرح النظم بعداوة الكافرين للمسلمين ، كما أبان عن تحقق العداوة بين الكافرين والعاصين أنفسهم ، والعداوة بين المسلمين أنفسهم ، والعداوة بين الإنسان والجماد .

كل هذه المعاني استقرت في ذهني بعد متابعة دقيقة لمواقع كلمة العداوة ومشتقاتها في النظم الحكيم ، والتي تم انتخابها مع تعدد سياقاتها وأساليبها لغرض يناسب سياقها ومقامها ، وقد دفعني هذا إلى معرفة أغراض تلك الألفاظ التي تحمل معنى العداوة في النظم القرآني وأسرارها البلاغية ، فأعددت بحثا لمعرفة ذلك عنونته بـ **(التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني أغراضه وأسراره البلاغية)** ، وقد سرت بصنيعي هذا في ركاب الإمام الزمخشري ، ومن سار على دربه ، وسلك سبيله في اهتمامهم بالنظر إلى المفردة القرآنية في مكانها من النظم ، والوقوف معها وقفات متأنية .

وتقوم دراستي في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي التكاملي ، وذلك بحصر مواقع لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني ، وتصنيفها بحسب ما تتعلق به ، مبينا الغرض الذي من أجله سيقت كلمة العداوة ومشتقاتها في مواقعها من النظم القرآني ، وأسرارها البلاغية من حيث التعريف ، والتنكير ، والذكر ، والحذف ، وإيثار صيغة على أخرى ، إلى غير ذلك مما يتصل بعلوم البلاغة ، معتمدا على كتب اللغة ، والتفسير ،

وعلوم القرآن ، والبلاغة ، وغيرها مما هو مدون في هوامش البحث وفي الثبت الأخير منه ، مشيرا إلى صلة لفظ العداوة ومشتقاته بالتركيب من حيث ملاءمتها لما قبلها وارتباطها بما بعدها على نحو يؤصل المعنى ويزيد من ثرائه ، وذلك في ضوء المنهج التحليلي ذي الطبيعة المتكاملة .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من : **مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة مباحث ، وخاتمة ، وفهرس .**

وقد فكرت في إعداد مباحث ذات عناوين بلاغية ـ مثلما يميل إليه بعض علماء البلاغة ـ فعقدت مبحثا لما ورد من لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني بطريق التعريف ، وثانيا بطريق التنكير، وثالثا بصيغة الفعل ، كما جال ـ أيضا ـ في خاطري تقسيم آخر بحسب الأغراض البلاغية للفظ العداوة ومشتقاته ، ولكني وجدت في ذلك تجزئة للصورة ، وتفتيت للموضوع الواحد ، ومن ثم آثرت تقسيما آخر يتصل بما يتعلق به لفظ العداوة ومشتقاته في القرآن الكريم ، فخصصت المبحث الأول لبيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين الجن والإنس وأسراره البلاغية ، وخصصت المبحث الثاني لبيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين الإنسان وبين ربه وملائكته ورسله، وأسراره البلاغية ، والمبحث الثالث خصصته لبيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين بني آدم ، وأسراره البلاغية ، وأما المبحث الرابع فقد قصرته على بيان أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته المتعلقة بالإنسان والجماد ، وأسراره البلاغية .

وأما الخاتمة فقد بينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

وأخيرا : فهذا العمل بَذرة رابعة في حقل البلاغة القرآنية ــ بعد الماجستير والدكتوراه ــ ، وما فيه من جهد فهو جهد المقل ، وما فيه من

سهو أو خطأ فأستغفر الله منه ، أسأل الله ألا يحرمني أجر المجتهدين ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

التمهيد

التعريف بلفظ العداوة ومشتقاته ودلالاته في النظم القرآني.

بداية أشير إلى أن لفظ العداوة ومشتقاته قد ورد في ثلاثة وخمسين موضعا في النظم القرآني ، وقد تنوعت مشتقات كلمة (عداوة) في النظم القرآني ، فقد اشتق منها لفظ (عدو)، ولفظ (أعداء) جمع عدو ، ولفظ (عادى) ، هذه هي الألفاظ التي أتناولها ـ إن شاء الله ـ بالبحث والدراسة، فأبين بعضا من أغراضها، وإيحاءاتها ، ودقائق نظمها ، وأقف على الفنون البلاغية التي زخرت بها هذه الألفاظ في مواقعها من النظم الحكيم ، مستبعدا الألفاظ التي خرجت أو بعُدَت بدلالاتها عن دلالة اللفظ المشتق منه ، ومن أجل هذا آثرت النص على كلمة (مشتقات) في عنوان البحث، لدلالتها على أن بين اللفظ المشتق والمشتق منه اتفاقا في المعنى، مع اختلاف في الصيغة [١] .

والناظر إلى كلمة (عداوة) من جهة ميزانها الصرفي يراها على وزن فَعَالة ، مصدر للفعل (عَدُوَ) على وزن : فَعُلَ، وبمثل هذا قال الفارابي : والعَداوةُ: مَصْدرُ العدُوِّ[٢] ، ويعد دورانها في النظم قليلا إذا قارناها بدوران لفظ (عدو) في النظم القرآني ، فقد ورد لفظ العداوة بطريق التعريف وطريق

---

(١) فقد عرف الجرجاني الاشتقاق "بأنه نزع لفظٍ من آخر، بشرط مناسبتهما معنى وتركيبا، ومغايرتهما في الصيغة (التعريفات للجرجاني صـ٢٧ . ط/ دار الكتب العلمية بيروت –لبنان . الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م) .

(٢) معجم ديوان الأدب للفارابي ٤٨/٤. ت/ دكتور أحمد مختار عمر . مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس . ط/ مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة : ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

التنكير في خمسة مواضع في النظم الحكيم ، منها أربعة مقرونة بالبغضاء ، وهي قوله : ـ

﴿ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ المائدة: ١٤ .

﴿ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ المائدة: ٦٤ .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾المائدة: ٩١ .

﴿ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤ .

والعداوة والبغضاء اسمان لمعنيين من جنس الكراهية الشديدة، فهما ضدان للمحبة ، وهذه العداوة إما أن تكون عداوة بسبب الدين ، وإما أن تكون بسبب شهوات الدنيا ، وإما أن تكون بسبب أحوال نفسية ، وتعد العداوة بسبب الدين أخطر هذه العداوات .

ومن مشتقات العداوة لفظ (عدو) : والوزن الصرفي له(فَعُول) صفة مشبهة ، فقد عد ابن الحاجب في الشافية[١] (فَعُول) زنة من زنات الصفات المشبهة، ومثل له بـ (غيور) من غار يغير لازماً على فَعِلَ بالكسر، ووقور من وقُر يَوقُر لازماً على فَعُلَ بالضم ، وأيده في ذلك بعض من العلماء منهم على سبيل المثال الشيخ مصطفى الغلاييني في كتابه جامع الدروس العربية[٢]، ومن العلماء من عدها صيغة مبالغة ، ومنهم من اتخذ معنى

(١) ينظر: الشافية في علم التصريف لابن الحاجب ، (ومعها الوافية نظم الشافية) . صـ٢٥ . ت/ حسن أحمد العثمان . ط/ المكتبة المكية – مكة . الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

(٢) ينظر : جامع الدروس العربية . مصطفى الغلاييني ١/١٩٠ . راجعه د/ عبدالمنعم خفاجي . ط/المكتبة العصرية . بيروت . الطبعة الثلاثون ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م .

الصيغة فيصلا في الحكم عليها بكونها صفة مشبهة أو صيغة مبالغة ، فإذا كان المراد من الحدث الدلالة على الثبوت كانت الصيغة صفة مشبهة ، وإذا كان المراد من الحدث الدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره كانت الصيغة صيغة مبالغة ، والفهم البلاغي مرده إلى مقتضيات السياق وأغراض الكلام ومقتضيات الأحوال .

والعدو : ضد الصديق وضد الولي[١] ، وقد جمع الشاعر بينهما في قوله :

جزى اللهُ الشَّدائدَ كلَّ خيرٍ ... عرَفتُ بها عَدُوّي من صديقي[٢].

وقد كثر ذكر لفظ (عدو) في النظم الحكيم ، وهو يقال للمبغض الذي يترصد لإيذاء وقتل الناس ، والقرآن يستعمل غالبا لفظ (عداوة) حينما تكون الخصومة من طرفين ، ويستعمل لفظ (عدو) حينما تكون الخصومة من طرف واحد إلا إذا عاده الطرف الآخر فتنشأ بينهما عداوة ، ومن علامات العدو أنه يحاول أن يؤذيك عند أدنى فرصة ، ويتمنى أن يصيبك مكروه ، ويظهر عليه الفرح إذا أصابك مكروه ، ويحزن لفرحك ، ويقلل من شأنك دائما، ويلصق بك التهم، ويبحث عن عيوبك .

وقد ذكر سيبويه أن : عَدُوٌّ وصف ، ولكنه ضارع الاسم[٣]، وقد تعرض أبو بكر الأنباري لها من جهة تذكيرها وتأنيثها ، فذكر أن هذه الصفة

---

(١) ينظر : معجم ديوان الأدب للفارابي ٤/٥٠.

(٢) المنهاج الواضح للبلاغة . حامد عونى . ط/ المكتبة الأزهرية للتراث .

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ٢/٣١٨ . ت/ عبد الحميد هنداوي . ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .

تذكر وتؤنث يقال: فلانة عدوّةُ فلان ، وعدوٌ فلان ، ومن خلال البحث تبين أنها لم تأت في القرآن إلا على التذكير .

والعرب تجمع لفظ (عدو) على (عِدىً، وعُداة) ، كما تجمع أيضا لفظ (عدو) على (أعداء) ، والوارد في القرآن جمع (أعداء) دون : عدى ، وعداة ، وتجمع العرب أيضا صيغة الجمع (أعداء) على (أعادٍ)، فالأعادي : جمع الجمع ، وجمع الجمع هذا لم ينص عليه في النظم القرآني ، في حين كثر ذكره في الشعر العربي .

ومن مشتقات لفظ (عداوة) العادِي : وهو اسم فاعل من الفعل الثلاثي (عدا) ، وهو بمعنى (عدُوّ) .

وأما لفظ (المعادي) فهو اسم فاعل من الفعل الماضي الرباعي (عادى)، يقال : عادى فلان جاره ، أي كرهه وخاصمه وألحق به الضرر ، فصار له عدوا[١] ومعاديا، وبصيغة الفعل الرباعي هذه ، وبهذه الدلالة ورد في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ ﴾ الممتحنة: ٧ ، ومنه قول النبي ـ ﷺ ـ **(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ)**[٢] ، والفعل الماضي الخماسي منه (تَعادى) ، يقال: تَعادى القوم

(١) ينظر : معجم اللغة العربية المعاصرة ١٤٧٢/٢. د /أحمد مختار عبد الحميد عمر . ط/ عالم الكتب . الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ ﷺ ـ وسننه وأيامه = صحيح البخاري . كتاب الرقاق . باب التواضع . حديث رقم (٦٥٠٢) ١٠٥/٨ ط/دار طوق النجاة. ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

من العَداوَة[1]، وتعادى الزُّملاءُ: تخاصموا وكان بعضُهم لبعضٍ عَدُوًّا[2]، ولم ترد هذه الصيغة في البيان القرآني .

وأرى من الضروري أن أشير إلى أن في القرآن الكريم ألفاظا تتشابه مع تلك الألفاظ التي أشرنا إليها آنفا ، ولكن بعُدَت بدلالتها عن دلالة لفظ العداوة ومشتقاتها، أو اقتربت منها قليلا ، لكونها تدل على التجاوز لحدود الحق ، والتجاوز من الحلال إلى الحرام ، والمبالغة فيه ، فمن الأول لفظ (العاديات) في قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ العاديات: ١ ، اسم فاعل من العَدْو ، وهو السير السريع ، يطلق على سير الخيل والإبل خاصة، ومن الثاني لفظ (العادون) ، ومن أمثلته قوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ المؤمنون: ٧ ، وقوله :﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ الشعراء: ١٦٦ ، وكذا لفظ(العدوان) ومن أمثلته قوله:﴿... وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ...﴾ المجادلة: ٨، ولفظ (الاعتداء) بجميع صيغه ، ومن أمثلة ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧﴾ المائدة: ٨٧ ، وقوله : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ الأعراف: ٥٥، وعليه فقد اقتصرت على دراسة الألفاظ التي تدل دلالة صريحة ومباشرة على تلازم التفرق مع عدم الوئام مع المعاملة بالإيذاء ، وهي الألفاظ التي أشرت إليها في أول التمهيد .

---

(١) ينظر:الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري٦/٢٤٢٠. ت/ أحمد عبد الغفور عطار. ط/ دار العلم للملايين. بيروت .الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة٢/١٤٧١ .

وبعد هذا التمهيد الذي بينت فيه أبنية تلك الألفاظ وأوزانها ودلالتها اللغوية أنتقل إلى بيان مواقعها في النظم الحكيم ؛ للكشف عن بعض من أغراضها ، ودقائق نظمها ، وإيحاءاتها .

المبحث الأول

أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين الجن والإنس وأسراره البلاغية.

يعد لفظ (عدو) هو اللفظ الوحيد الذي دار في هذا المبحث ، فقد ورد في سبعة عشر موضعا ، وذلك لما تفيده الصفة المشبهة من ثبوت عداوة ابليس لآدم وذريته ، فتلك صفته لا تتغير، وقد كان التعبير الأكثر دورانا في هذا المبحث هو تقديم متعلق (عدو) عليه ، في حين ورد متعلق لفظ (عدو) في ترتيبه الطبيعي في موضع واحد فقط ، كما اطرد دوران لفظ (عدو) في هذا المبحث على طريق التنكير ، وقَلّ خروجه على خلاف مقتضى الظاهر بإفراده في موضع الجمع ، وقد تعددت الفنون والأغراض البلاغية لذكر لفظ (عدو) في هذ المبحث ، وقد كشفت عنها في صورتين : .

الصورة الأولى : عداوة إبليس لآدم وزوجه ــ عليهما السلام ـ .

عداوة إبليس لآدم عليه السلام هي الصورة الأولى ، وهى عداوة مسببة عن واقعة ثابتة ؛ حيث امتنع عن السجود لآدم ؛ لأنه رأى أنه أفضل، وقد صرح الله ـ عز وجل ـ بعداوة إبليس لآدم وزوجه في خمسة مواضع من النظم الحكيم .

الموضع الأول : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ

عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ البقرة: ٣٥ – ٣٦ .

الموضع الثاني والثالث : قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأعراف: ٢٢ – ٢٤.

الموضع الرابع والخامس قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ طه: ١١٥ – ١٢٣

تلك خمسة مواضع نص الله فيها صراحة على أن إبليس عدو لآدم وزوجه مبتدأ بهذا الخبر الذي ورد عقب النداء **﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾** ، وهو خبر حمل في طياته النصح والإرشاد لآدم ـ عليه السلام ـ ، كما حمل تحذيره من إبليس بوصفه بالعدو ، ذلك اللفظ الذي يدل على أن إبليس لن يأتي له بخير أبدا ، فذلك حال العدو

دائما، وإنما صار إبليس عدوا لآدم لأنه كان سببا في طرده من الجنة وغضب الله عليه ، وإحلال اللعنة عليه بسبب تكبره ، زد على هذا أن منهج إبليس هو إفساد البشرية ، أما منهج آدم ـ عليه السلام ـ فهو إصلاح البشرية وهدايتهم، فكما ترى بينهما تباين شديد في المنهج .

وأكد الخبر بـ (إنّ) فقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾لتنزيلهما منزلة من يشك في الخبر ، وهو أن إبليس عدو له ولزوجه زيادة في التحذير منه ، وعندي رأي آخر ، وهو أن الله تعالى أكد الخبر بـ (إنّ) لأنهما ظنا ـــ بسبب مكر إبليس بهما وخداعه لهما ـ أنه قد زالت عداوته لهما ، وأنه لا يريد لهما إلا الخير ؛ حيث حلف لهما بما يوهم صدقه : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ الأعراف :٢١ .

وقد علل الألوسي لإعادة ذكر اللام في قوله (عدو لك ولزوجك) بأنه لا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار عند الجمهور ، وجاء برأي آخر ، وهو أن إعادة اللام للدلالة على أن عداوة اللعين للزوجة أصالة لا تبعا [1] ، وقد جعل صاحب التحرير الرأي الثاني تعليلا لذكر متعلق عداوة إبليس وهو (آدم) أولا ، و(زوجه) ثانيا ، فتراه يقول : "ابتدئ في ذكر متعلق عداوته بآدم ؛ لأن آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجه ؛ لأن عداوته إياها تبع لعداوته آدم زوجها، وكانت عداوته

(١) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٥٧٩/٨ . ت/ علي عبد الباري عطية. ط/ دار الكتب العلمية – بيروت .الطبعة الأولى١٤١٥هـ.

متعلقة بكليهما لاتحاد علة العداوة ، وهي حسده إياهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء .. ؛ ولأن الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم"[١].

مجيء متعلق (عدو) بلفظ (زوجك) دون : امرأتك .

التعبير بزوجك دون امرأتك في قوله (عدو لك ولزوجك) في غاية الدقة ؛ لأنه يشير إلى أن العلاقة بين آدم وحواء كانت علاقة زوجية ، فهما أول زوجين من البشر ، كما أن هذا التعبير يوحي أيضا بما بين آدم وحواء من المودة ، والألفة ، والرحمة ، والسكن ، ويدفع العداوة بينهما ، خلافا للتعبير بكلمة (امرأتك) التي توحي بأن الحياة الزوجية قد تعطلت بسبب عدم تحقق المودة ، والرحمة ، أو بسبب خيانة ، أو تباين في العقيدة ، مثلما عبر الله تعالى عن زوج فرعون بـ(امرأة)، ولم يصفها بزوج، ذلك بأن الحياة الزوجية قد تعطلت بينهما بسبب إيمانها وكفره ، ومن هنا يتناول البيان المعجز اللفظتين بملحظ من الدلالة ، فإذا قامت الحياة الزوجية على هذه الأسس يعبر بزوج لا امرأة ، أما إذا تعطلت لأي سبب يعبر بامرأة لا زوج .

وعدو آدم وزوجه هو إبليس ــ لعنه الله ــ ، لكن يلحظ أن الله ــ عز وجل ــ لم يذكر اسم إبليس هنا صراحة ، وإنما عبر عنه باسم الإشارة (هذا) للتحقير من شأنه ، وإشارة إلى تعيينه في الذهن دون غيره ؛ حيث لا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه، وفرع سبحانه على الإخبار بكون إبليس عدوا لآدم ولزوجه: بقوله ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ ، وهذا نهي وتحذير من أن يتسبب إبليس في خروجهما من الجنة ؛ لأن العدو لا يسره صلاح حال عدوه

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٢١/١٦ . ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م .

، وقد أسند سبحانه إلى هذا العدو(إبليس) الإخراج لهما من الجنة لأنه هو المتسبب في ذلك، عن طريق الوسوسة لهما، وطاعتهما له فيما حرضهما عليه وهو الأكل من الشجرة ، فالتعبير على هذا جار على ما يعرف عند أهل هذا العلم بالمجاز العقلي الذي علاقته السببية .

ثم إن العدو يريد لمن يعاديه أن يشقى ، لذلك جاء التعبير القرآني بلفظ الشقاء ليدل دلالة صريحة على أن بعد خروج آدم من الجنة سيقوم بحراثة الأرض ، وفلاحتها ، وزرعها ، وريها ... ثم حصدها.. ثم إعداد نتاجها للأكل ، وسيصادف ألونا من الشقاء متنوعة ومختلفة ، وفي هذا كله مالا يخفى على ذي عقل من الكد والتعب والشقاء ، ويلحظ أن الله تعالى عبر بالمفرد فقال :﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ ، ولم يعبر بالمثنى (فتشقيا) كما قال : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ مراعاة للانسجام الصوتي للفواصل ؛ ولأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده ، أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء أهله، كما أن في سعادته سعادتهم، أو لقوامة الرجل ، فهو المكلف بأن يقدم لها ما تحتاجه من مطالب الحياة ، كالمسكن ، والملبس ، والمطعم ، والمشرب ، .. إلخ ، فهذه القوامة تعني تحمل مسئولية البيت والعمل والكد والتعب من أجل راحة الزوجة .

ومن مظاهر عداوة الشيطان لآدم وزوجه ما صرح به الحق سبحانه بقوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ

لَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠ - ٢٢.

ويلحظ أن التصريح بلفظ (عدو) في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ قد كان كافيا في عدم اتباع آدم لإبليس فيما وسوس به ، ولكنه نسي كما قال الله: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه: ١١٥ ، فعصى آدم ربه بأكله من الشجرة المنهي عن الاقتراب منها ، وبعدما عصى آدم وزوجه ربهما خاطبهما مرة ثانية فقال: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

وقد رأى الزمخشري أن الاستفهام في قوله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ هو عتاب من الله لآدم وزوجه على مخالفة النهي في قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ) ، وتوبيخ لهما على الاغترار بقول عدوهما (إبليس) ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [١] ، وتبعه في ذلك البيضاوي والألوسي[٢]، وزاد ابن عطية بأنه للتقرير المتضمن

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ٩٢/٢ . ت/ عبد الرزاق المهدي . ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٩/٣ . ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي .ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ ، وروح المعاني ٣٤١/٤ .

للتوبيخ[١]، وتبعه الطاهر بن عاشور في أن الاستفهام في (ألم أنهكما) للتقرير والتوبيخ ، وفي قوله ﴿ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾للمبالغة في التوبيخ[٢] .

وأرى أن التوبيخ لا يليق ولا يتناسب مع مقام آدم عليه السلام عند الله ، فهو خليفة الله في الأرض ، وهو الذي سجدت له الملائكة ، وأرى أن الاقتصار على العتاب هنا أوفق وأبر وأولى ، وهذا ما اقتصر عليه أبو حيان من قبل ، حيث قال : "وهو استفهام معناه العتاب على ما صدر منهما"[٣] .

وملمح آخر في النظم وهو أن الله ـ تعالى ـ وصف العدو بأنه مبين، وفي هذا إشارة إلى زيادة وضوح عداوته لهما ؛ حيث كشف الله حقيقته لهما بقوله: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ ﴾.

ومن بديع النظم القرآني ما تجده في تقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمَا﴾ على متعلقه ، وهو قوله﴿ عَدُوّٞ ﴾، وكان من حقه التأخير فيقال : إن الشيطان عدو مبين لكما ، وإنما قدم ما حقه التأخير مراعاة للانسجام الصوتي والتناغم الصوتي للفواصل ، وهذا مما يؤثر في النفوس وترق له القلوب ، فلما كانت الآيات قبلها وبعدها منتهية بحرف النون ناسب هنا

(١) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٤٥١/٢ . ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد . ط/ دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م .

(٢) التحرير والتنوير ٦٦/٨ .

(٣) البحر المحيط٥/٢٨ . ت/ صدقي محمد جميل . ط/ دار الفكر – بيروت ١٤٢٠هـ .

تأخير ما حقه التقديم مراعاة لذلك ، وهذا من إعجاز التناسب الصوتي في القرآن الكريم ، ومن بدائع فصاحة القرآن ، وكثيرا ما تنتهي آيات القرآن بكلمات متحدة أو متقاربة في جزئها الأخير، ويطلق على هذه الكلمات اسم (فاصلة) ، وهذا هو المراد أيضا من تقديم متعلق عدو في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ البقرة: ١٦٨ ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ البقرة: ٢٠٨ ، وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ﴾ الأنعام: ١٤٢ ، وقوله : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ ﴾ يوسف: ٥ ، وقوله : ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ ﴾ يس: ٦٠ ، وقوله : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢ ﴾ الزخرف: ٦٢ .

وقد ذكر الدكتور عبدالقادر وجها آخر للتقديم في الآية ٢٢ من سورة الأعراف ، وهو قصر عداوة الشيطان عليهما ، وكأنها مخصصة لهما لا لغيرهما[١] ، قصر صفة على موصوف تنبيها على شدة عداوته لهما ، إذ كان آدم سببا في طرد إبليس من الجنة وإحلال لعنة الله عليه ؛ حيث امتنع عن السجود لآدم ، وأنا أميل إلى الوجه الأول ، إذ لو كان الثاني هو

(١) ينظر : سور الحواميم دراسة بلاغية . د/ عبدالقادر علوش صـ ٣٦٧ . ط/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

المقصود لراعى النظم الحكيم التقديم في آية طه ؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ وهذا لم يحدث .

كما أشار الدكتور عبد القادر إلى أن تنكير (عدو) للتكثير وبيان شدة عداوته لهم(١) ، والذي أراه أن التنكير قد يتناسب مع خفائه ، فهو عدو خفي لا يراه الإنسان ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ الأعراف: ٢٧ ، وهذا ما يدل على شدة خطورته ، ولذلك قال مالك بن دينار : إن عدوًا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ، وهذا لا يتعارض مع وصفه بأنه مبين ، فهذا وصف لأفعاله ووسوسته ، وذاك وصف لذاته ، أضف إلى ما أفاده التنكير الإشارة إلى أنه لا يعلم أحد عظم خطورته على الوجه الأكمل إلا علام الغيوب ـ سبحانه ـ .

وبعد اعتراف آدم وزوجه بخطئهما ، وطلب المغفرة والرحمة من الله تاب الله عليهما ، وأوحى إليهما وإلى إبليس أن ﴿ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، فأحد البعضين هو آدم وزوجه، والبعض الآخر هو إبليس ، ولا حاجة لتقدير إرادة ذرية آدم بالجمع كما ذهب بعض المفسرين ، لأن الأمر بالهبوط في قوله : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ينافي هذا التقدير ، وقد جاء الأمر بالهبوط بصيغة الجمع ؛ لأن الخطاب لآدم وزوجه وإبليس قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ البقرة: ٣٥ ، ٣٦، في حين جاء الأمر بالهبوط بصيغة المثنى في سورة طه في قوله :﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا

(١) ينظر : سور الحواميم دراسة بلاغية صـ ٣٦٧ .

﴿ جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ؛ لأن الخطاب في طه لآدم وحده ، فقد قال الله (لا تظمأ، فوسوس إليه، فتشقى، فعصى آدم ربه) ، ومن ثم جاء الأمر في (اهبطا) لآدم وإبليس وحواء تابعة ، وخص آدم لأن آدم هو المنوط به التواصل مع الله سبحانه وتعالى بالوحي.

وفي كل ما سبق ورد لفظ (عدو) نكرة ، وقد أجاز الشيخ زادة حمل تنكير (عدو) على التعظيم كتنكير رسل ، كما أجاز حمله على النوعية [١]، كما أجاز الدكتور عبد القادر علوش أن يكون تنكير (عدو) للتكثير [٢] ، وأرى أن إفادة التحقير مما يتناسب مع انحطاط قدر العدو (الشيطان) ، كما قال الله تعالى له : ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الأعراف: ١٣ ، وقوله : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ﴾ الأعراف: ١٨ ، وهو الذي يضعف أمام من يستيقظ فيذكر الله تعالى يقول ـ سبحانه : **﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١ ، ومن ثم فإن الذي يليق به ويناسبه من وراء تنكير لفظ (عدو) هو التحقير من شأنه ، أضف إلى ذلك مما ذكرته آنفا من تناسب التنكير مع تخفيه .**

والناظر إلى موقع جملة ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، يراها جملة حالية من الضمير في قوله (اهبطوا) في معنى : متعادين ، والغرض من هذه الحال إعلام آدم وحواء عليهما السلام أن إبليس عدو لهما ولذريتهما ، كما

---

(١) ينظر : حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي ٧/٧ . ط/ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

(٢) ينظر: سور الحواميم دراسة بلاغية . صـ ٣٦٧ .

عرفهما ذلك قبل الأكل من الشجرة فقال: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾، وأن هذه الحال دائمة .

وألحظ أنه يمكن في غير القرآن أن يقال : بعضكم عدو لبعض ، فـ (بعضكم) مبتدأ ، و(عدو) خبر ، و(لبعض) جار ومجرور متعلق بعدو ، ولكن النظم القرآني خالف هذا الترتيب ، فقدم الجار المجرور على متعلقة للتشويق إلى معرفة المتعَّلق وترقبه ، حتى يثبت ويتمكن ويستقر في الذهن ، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إليه ، فيتمكن وقت وروده فضل تمكن .

إفراد لفظ (عدو) في موضع الجمع مراعاة للمعنى .

ملمح آخر في هذا النظم ، وهو أنه لم يأت هكذا : بعضكم لبعض أعداء ، وإنما وحد اللفظ فقال (عدو) ، وقد أدت صيغة الإفراد هنا دورا مهما في الإفصاح عن وحدة إبليس وأعوانه في إغواء بني آدم وإيقاع الضرر بهم ، وأجد في هذا إشارة إلى أن المسلمين يجب أن يكونوا يدا واحدة ، وأن يكونوا على قلب رجل واحد ضد إبليس وأعوانه كما أنهم يد واحدة عليكم ، وأرى أن ما ذهب إليه بعض العلماء من أن لفظ (عدو) شبيه بالمصدر يطلق على الواحد والجمع مما لا يكشف عن بلاغة النظم الحكيم ، وإذا كان لفظ (عدو) يطلق على الواحد والمثنى والجمع فلماذا لم يغن عن التعبير بلفظ (الجمع) في مواضع أخرى من النظم ، مع كونه أقل حروفا وأوقع في الإيجاز ؟ .

وبعد عرض المواضع التي أفصح الله فيها صراحة عن عداوة إبليس لآدم جملة وتفصيلا تبقى الإشارة إلى أن الغرض من حكاية عداوة إبليس

لآدم وتكرارها في أكثر من موضع هو تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ، والتأكيد على ثبوت عداوته لهم ، وشدة خطورته ، وزيادة تحذيرهم من اتباع وسوسته، وإظهار ما يترتب على اتباعه من الخسران .

الصورة الثانية: عداوة الشيطان لبني آدم .

هذه الصورة برزت في اثنى عشر موضعا من النظم الحكيم .

الموضع الأول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ ﴾ البقرة: ١٦٨ – ١٦٩

الموضع الثاني : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ البقرة: ٢٠٨

الموضع الثالث : ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ﴾ الأنعام: ١٤٢

الموضع الرابع : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ ﴾ يوسف: ٥

الموضع الخامس : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣ ﴾ الإسراء: ٥٣

الموضع السادس : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠

الموضع السابع والثامن : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ القصص: ١٥

الموضع التاسع والعاشر : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ فاطر: ٦

الموضع الحادي عشر : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ يس: ٦٠ – ٦٢

الموضع الثاني عشر: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ الزخرف:٦٢

من يتأمل في هذه الآيات الخمس ، وهي قوله : ـ

١ــ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ البقرة: ١٦٨

٢ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨

٣ ـــــــ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٢

٤ ـــ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ يس: ٦٠

٥ ـــ : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ الزخرف: ٦٢

من يتأمل في تلك الآيات الخمس يجد أن الله ـ عز وجل ـ ختم كل آية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، وهو علة للنهي الوارد في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ ﴾، وقوله : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ ﴾ ، وكأن سائلا يسأل : لماذا لا نتبع خطوات الشيطان ؟ ، ولماذا لا نعبد الشيطان ؟ ، ولماذا يصدنا عن طاعة الله ؟ ، فتأتي الإجابة : لأنه لكم عدو ، **وهكذا ترى أن القرآن الكريم حرص على تعليل النهي في الآيات الخمس ، فنبه إلى النتيجة عقب النهي ، وهي أن الشيطان عدو مبين ، يريد لنا المساءة بكل أنواعها ، وهكذا ينبه الله بني آدم إلى خطره ، ويحذرهم منه ، ويربي فيهم المناعة من الشيطان بتذكيرهم بعداوته لهم ، وأن هذه العداوة لها منهج ولها خطة ، وهي مع كل ذلك واضحة لذوي البصائر.**

إذا تبين مما سبق تكرار النص على عداوة الشيطان لبني آدم في أكثر من موضع لتذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ؛ لأخذ الخذر منه فيما يزينه لهم من المعاصي والمنكرات ، كما ورد تكرار وصف العدو **بأنه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ في أكثر من موضع ، وفي هذا إشارة إلى زيادة وضوح عداوته لبني آدم**

، حيث كشف الله حقيقته لهم فحكى عنه قوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ الأعـــراف: ١٦ - ١٧ ، وقولـه : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ ﴾ النساء: ١١٩ ، فلما صرح الشيطان بهذه المفاسد وغيرها كان عدوا ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة ، كما أن أمره مع أبينا آدم شهير، ولذلك وصفه الله بأنه عدو مبين .

بهذا الخبر ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ أفاد الله بني آدم بثبات عداوة الشيطان لهم ، فهذا أمر لا يتغير، والتعبير بـ"(إنَّ) لمجرد الاهتمام بالخبر؛ لأن العداوة بين الشيطان والناس معلومة متقررة عند المؤمنين والمشركين ، وقد كانوا في الحج يرمون الجمار ويعتقدون أنهم يرجمون الشيطان، أو تجعل (إنَّ) للتأكيد بتنزيل غير المتردد في الحكم منزلة المتردد ؛ لأنهم لاتباعهم الإشارات الشيطانية بمنزلة من ينكر عداوته"(١) .

ومن الملحوظ أن الله تعالى بعدما صرح بعداوة الشيطان لبني آدم إجمالا في ختام الآية السابقة فصلها ببيان مظاهرها فقال:﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ، فهذا بيان وتفصيل لجملة عداوته، وهو أيضا في موضع علة العلة ، وكأن سائلا سأل : ولماذا كان الشيطان عدوا للإنسان ؟ فأجيب : لأنه لا يأمر إلا بثلاثة أشياء أولها: السوء ، وثانيها : الفحشاء ، وثالثها : التقول على الله .

(١) التحرير والتنوير ١٠٤/٢ .

والتعبير بالسوء في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوَءِ ﴾ فيه عموم ؛ لأن السوء يشمل كل سوء من الصغائر والكبائر ، أي جميع المعاصي ، وعطف الفحشاء على السوء في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوَءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ تخصيص بعد تعميم ؛ لأن الفحشاء هي : "ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال"(١)، فهي داخلة في عموم لفظ (السوء) ، وقد خصها بالذكر زيادة في التحذير منها ؛ لكونها أقبح أنواع السوء مبدأ وعاقبة ، قال صاحب روح البيان : "السوء هو كل ما ساءك في عاقبتك ، يطلق على جميع المعاصي سواء كانت من أعمال الجوارح أو أعمال القلوب ؛ لاشتراك كلها في أنها تسوء صاحبها وتحزنه ، والفحشاء من عطف الخاص على العام ، أي أقبح أنواع المعاصي وأعظمها مساءة ، فالزنا فاحشة ، والبخل فاحشة ، وكل فعلة قبيحة فاحشة"(٢) .

وثلث ـ سبحانه ـ بمظهر من مظاهر عداوته فقال : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا المقطع يعد تخصيصا بعد تخصيص بعد تعميم ؛ لأنه من السوء والفحشاء ، وقد خصه بالذكر بعد اندراجه تحت عموم السوء وخصوص الفحشاء لزيادة التحذير منه ؛ لكونه أقبح أنواع الفحشاء ، فالتقول على الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر، هذا على تفسير السوء بأنه يشمل جميع المعاصي من الصغائر والكبائر، وأن الفحشاء تعني

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ٦٢٦/١ ت/ صفوان عدنان الداودي . ط/ دار القلم، الدار الشامية .دمشق بيروت.الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي ٢٧٢/١ . ط/ دار الفكر – بيروت، وينظر . أيضا :. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للفخر الرازي ٥/٥ . ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ ، وروح المعاني ٤٣٧/١ .

الكبائر ، ومن العلماء من فسر السوء بأنه ما لا يكون فيه حد ، والفحشاء ما يكون فيه حد[1] ، وعليه يكون قوله : ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٩﴾ تخصيصا من بين عموم السوء والفحشاء معا ، أي تخصيص بعد تعميم .

الغرض من تفصيل مظاهر عداوة الشيطان بعد إجمالها .

وقد فصل ـ سبحانه ـ مظاهر عداوة الشيطان بعد إجمالها لتقرير المعنى وتوضيحه بعد إبهامه في نفس السامع، وتمكنه لديه فضل تمكن ، زيادة في التحذير ، وأخذ الحذر منه .

وألحظ في هذا النظم ـ أيضا ـ أن الله ـ تعالى ـ عبر بـ (إنما) التي تفيد القصر؛ حيث قصر ما يأمر به الشيطان على السوء والفحشاء، والتقول على الله بلا علم قصرا حقيقيا ، لينتفي عن هذا العدو وهو الشيطان الأمر بشيء فيه رشد ، "من قصر الموصوف على الصفة ، وهو قصر قلب ؛ حيث اعتقد بعض الناس أن في تحريمهم بعض ما أحل الله مزيد طاعة وتقرب إليه ، فحرموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ، وقد اتبعوا في ذلك أمر الشيطان واستجابوا له وظنوه أمرا بالطاعة ، فجاءت إنما لترشدهم إلى طريق الحق بإظهار حقيقة الأمر ، بأن تحريم ما أحل الله إنما هو من عمل الشيطان ، وجاء تقرير هذه الحقيقة بـ (إنما) ليكون أبلغ في إبراز أمر الشيطان ، وأبلغ في التحذير منه ، والابتعاد عنه ؛ حيث قلبت

(١) ينظر: الكشاف ٢١٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١٠/٢ ٠ ت/ هشام سمير البخاري . ط/ دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م .

اعتقادهم بقصر أمره على السوء والفحشاء والتقول على الله"[١] ، وقد يكون قصر إفراد على التغليب ؛ لأن بعض المخاطبين يعتقدون الشركة بين أمر الشيطان للإنسان بما فيه سوء وبما فيه نفع ، وقريب من هذا قوله : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ الجن: ٦ ، فمن الناس من يعتقد أن الجن ينفع ويضر، فبين الله أن من يركن إليه لا ينفعه ، إنما يرهقه ويؤذيه ؛ لأنه له عدو .

ومن الملحوظ أن الله تعالى قال (يأمر)، ومفهوم الأمر : هو طلب حصول الشيء على وجه الاستعلاء والإلزام ، والأمر في الأصل : الطلب بالقول ، واستعمل في تزيين الشيطان المعصية ؛ لأن تزيينها في معنى الدعوة إليها ، قال الزمخشري : "فإن قلت: كيف كان الشيطان آمرا مع قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ الحجر: ٤٢ ؟ قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا ، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه ، ولذلك قال :﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ١١٩ "[٢].

والمتأمل في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨ يجد

(١) القصر وأساليبه مع بيان أسرارها (الثلث الأول من القرآن الكريم) رسالة ماجستير للباحثة نجاح أحمد عبدالكريم صـ ٢٤٧. مخطوط في كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م .

(٢) الكشاف ٢١٣/١ .

حسن هذا الختم المضاد لختم التي قبلها ، وهي قوله : ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ البقرة ٢٠٧ ، فإن تذكر رأفته سبحانه بعباده ، وتذكر عداوة المضل أعظم منفر منه وداع إلى الله سبحانه وتعالى[١] .

كما لوحظ في هذه الآيات الخمس تقديم متعلق عدو عليه ، وقد بينت الغرض من ذلك فيما سبق .

وأتحول إلى بيان عداوة الشيطان لبني آدم في الموضع الرابع والخامس وهو قوله: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يوسف: ٥، وقوله:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ الإسراء: ٥٣.

فقد ختمت الآية الأولى بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، وهي جملة تعليلية للنهى عن قص يوسف عليه السلام ما رآه على إخوته، وهي أيضا بيانية للسبب النفسي لهذا الكيد، وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عندما تعرض له داعية من هوى النفس، وشرها الحسد الغريزي في الإنسان، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله: (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي).

الغرض من نص يعقوب على عداوة الشيطان للإنسان .

إنّ نهي يعقوب ـ عليه السلام ـ ابنه يوسف عن قص الرؤيا على إخوته لئلا يكيدوا له قد يثير في نفس يوسف (عليه السلام) حقدا على إخوته

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣٨٧/١ . ت/ عبد الرزاق غالب المهدي. ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م .

وكراهية لهم، فأراد أبوه أن ينسب أسباب الكيد إلى عداوة الشيطان للإنسان، ليؤكد ليوسف أن كيد إخوته له ـ فيما لو حدث ـ ليس صادرا عن طبع فيهم وسجية ، بل إنه من وساوس الشيطان، فيدفع بذلك ما قد يثار في نفس يوسف على إخوته .

وبهذا يكون في قول يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام ـ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ ارتفاع بيوسف النبي المرتقب إلى أخلاق النبوة العالية، حتى لا تكون هناك سحابات مظلمة ، أو شبه مضللة تطرأ على قلب يوسف الصافي الوديع ، بسبب ما قد يقع من إخوته بعد ذلك ، ليظل يوسف على صفاء قلبه وسلامة صدره ونقاء سريرته ، وحبه الخير لإخوته مهما فعلوا ، ولقد حدث ذلك فعلا حينما التقى بهم في نهاية القصة إذ قال لهم: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يوسف: ٩٢ "[١] .

وكما ختمت الآية الأولى ختمت الآية الثانية بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينًا ﴾ ، وهو تعليل لقوله ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ **الغرض منه التأكيد على عداوة الشيطان لبني آدم ، وعدم الاستخفاف بوسوسته التي تهيج الشر وتثير المفاسد ، ولا يعني التعبير بـ (كان) هنا أن الشيطان كان عدوا والآن أصبح صديقا ، وإنما كان ولا يزال عدوا ، فكان هنا استمرارية .**

(١) موسوعة تفسير سورة يوسف لعليش متولي بدوي البنى. صـ٢٦٧ . مطابع القيس التجارية .

وقد ذكر الزمخشري أن هذا المقطع ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ اعتراض بين قوله : (يقولوا التي هي أحسن) وبين قوله (ربكم أعلم بكم) الذي هو تفسير لقوله (يقولوا التي هي أحسن) ، لكن الزمخشري لم يعلل لهذا الاعتراض ، وفي رأي أن الغرض من هذا الاعتراض هو تنبيه المؤمنين إلى خطورة نزغ الشيطان في النفوس لعداوته الشديدة للإنسان ، الأمر الذي يترتب عليه نتائج خطيرة على الدعوة والدعاة.

وقد جاءت الجملة المذكرة بنزغ الشيطان مفصولة عن التي قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال (ترابط معنوي) حيث وقعت الجملة المذكرة بنزغ الشيطان جوابا عن سؤال أثارته الجملة الأولى ، وكأن سائلا سأل : لماذا نقول لهم حسنا ؟ فأجيب : لأن الشيطان يوسوس في النفوس فيهيج الشر بين الناس ، فتنشأ بينهم العداوة والبغضاء ، كما جاءت الجملة المذكرة بعداوة الشيطان للإنسان مفصولة عن التي قبلها لما بينهما أيضا من شبه كمال الاتصال حيث وقعت هذه الجملة المذكرة بعداوة الشيطان للإنسان جوابا عن سؤال ناشيء عن الجملة التي قبلها ، وكأن سائلا قال : لماذا يهيج الشيطان الشر بين الناس ؟ فجاءه الجواب : لأنه للإنسان عدو مبين .

وقد لحظ الدكتور فاضل نايف أن الله تعالى" قد عبر عن صفة الشيطان بالجملة الفعلية (ينزغ) للدلالة على أن هذ الفعل الصادر من الشيطان هو عملية مستمرة ومتجددة ، وحادثة حسبما يجد من ثغرات في

تصرفات الإنسان وأقواله، في حين أن التعبير عن عداوة الشيطان جاء بواسطة الجملة الإسمية ،وهو ما يدل على أن هذه العداوة ثابتة ودائمة"(١).

من جهة أخرى ترى أن التحذير من عداوة الشيطان مما يناسبه التعبير بلفظ الإنسان؛ لأنه ينسى ظلمه وطغيانه ، وينسى تحذير ربه له ، وينسى إنعام ربه عليه ، والعدو يريد ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ يوسف: ٤٢، وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنعام: ٦٨.

ومن الملحوظ في هاتين الآيتين تقديم متعلق عدو وهو الإنسان عليه ، لإفادة قصر عداوة الشيطان على بني آدم ، مع مراعاة الانسجام الصوتي للفواصل ، "وتلك ميزة فنية في الأسلوب القرآني ، وهي أن تأتي اللفظة لتؤدي معنى في السياق ، وتؤدي في الوقت نفسه تناسبا في الإيقاع ، دون أن يطغي هذا على ذاك أو يخضع النظم للضرورات ، والمتتبع للسجع في القرآن(*) يجده قد اتخذ وسائل قد تخالف الأصل والقياس في اللغة ، وذلك رعاية للفاصلة من حيث الإيقاع الصوتي أولا ، ثم لما تحدثه هذه الصورة الصوتية من إيحاءات نفسية عميقة ، فتكون بهذا قد أحدثت أثرها المطلوب"(٢) .

---

(١) سورة الإسراء دراسة بلاغية دلالية رسالة ماجستير للباحث : فاضل نايف سلطان . صـ١٧٧. جامعة الكوفة . كلية الآداب . قسم اللغة العربية ٢٠٠٧م .

(*) جمهور العلماء لا يرى إطلاق لفظ السجع في القرآن الكريم ، وإنما يعبر عنه بالفاصلة القرآنية .

(٢) الصورة الأدبية في القرآن .د/صلاح الدين عبد التواب صـ ٨٤، مكتبة لبنان . الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

وبعد هذا البيان الصريح بعداوة إبليس لبني آدم يُعَجِّب ـ سبحانه ـ من حال بعض الناس الذين اتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم فيقول :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠

وقد ختمت الآية بالاستفهام الغرض منه : ـ

١ـ إنكار اتخاذ المشركين إبليس وذريته أولياء من دون الله ، إذ كانوا يعبدون الجن، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ الأنعام: ١٠٠ .

٢ـ التعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم ، بمعنى : كيف تتخذون هؤلاء أولياء وهم لكم أعداء؟ .

٣ ــ توبيخهم على هذا الفعل القبيح ، فهذا من السفه ونقص العقل ونقص التصرف أن يتخذ الإنسان عدوه وليا.

وقد زادت هذه الجملة الحالية (وهم لكم عدو) من الإنكار والتوبيخ والتعجيب الذي أفادته الهمزة في قوله :﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾بمعنى : كيف تتخذون إبليس وذريته أولياء من دوني مع ثبوت عداوته لكم ؟ فهذا العدو هو الخصم الذي يترقب حصول ما يضركم في كل وقت ، وإن من السفه ونقص العقل أن يتخذ الإنسان عدوه وليا .

ومن الملحوظ أن الله تعالى لم يقل : أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني بئس للظالمين بدلا ، وإنما نص على عداوة إبليس وذريته للمخاطبين

بجملة حالية من مفعول الاتخاذ فقال : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾، **والغرض منها** : إثبات عداوة إبليس وذريته لبني آدم ، والحث على اتخاذه وذريته عدوا ، كما أن في التعرض لذكر عداوته في هذا النظم تقريع وتوبيخ للمشركين الذين اتخذوا عدوهم أولياء من دون الله ، يضاف إلى ذلك التنفير عن الشيطان وذريته ، وتحذير بني آدم من أن ينقادوا لهذا العدو الذي يوردهم المهالك .

خروج التعبير بلفظ (عدو) عن مقتضى الظاهر .

من الملحوظ مجيء لفظ (عدو) مفردا في معنى الجمع في مواطن كثيرة من النظم الحكيم ، ويعد قوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾منها ، فهذا الضمير (هم) ضمير جمع ، في حين جاء لفظ (عدو) مفردا ، فخرج التعبير بلفظ (عدو) عن مقتضى الظاهر ، ولو لم يخرج عن مقتضى الظاهر لقيل: أعداء لا عدو، وفي الخروج عن مقتضى الظاهر بالعدول عن الجمع إلى الإفراد إشارة إلى أن إبليس وذريته صورة واحدة في العداء لبني آدم ، وكأنهم يد واحدة عليهم ، وعلى درجة واحدة في شدة عدائهم لبني آدم كشهرة قولنا : على قلب رجل واحد ، وهذا ما عناه صاحب نظم الدرر بقوله " أغنى عن صيغة الجمع فقال : (عدو) إشارة إلى أنهم في شدة العداوة على قلب واحد"[(١)] ، وكل ذلك على سبيل التحذير.

وقريب مما ذكر في العدول عن صيغة الجمع (أعداء) إلى المفرد قول الخضري " الله يلفت انتباه المسلمين إلى أن أعداء الحق مهما تعددت

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤/٤٧٦ .

مذاهبهم يلتقون ويلتفون حول هدف واحد هو القضاء على الحق وأهله "[1] ، هكذا لفت الأنظار بتوحيد لفظ (عدو) إلى توحد إبليس وأعوانه في مواجهة الحق وأنصاره .

وقد يكون في العدول تهوين وتحقير من شأن الشياطين ، وكأن عداوتهم تعدل عداوة واحد فقط ، فكيدهم ضعيف ، وليس لهم سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، ولهذا أيضا جاءت اللفظة نكرة ، فحسن توافق صيغة التنكير مع صيغة الإفراد في إفادة المعنى .

ولم يكتف . سبحانه . بتحقير إبليس وذريته من خلال التصريح بكونهم أعداء لبني آدم ، بل أراد زيادة مذمتهم ، ولما كان الفعل (بئس) أجدر شيء بالذم عبر به فقال : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ ، والمخصوص بالذم محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وتقدير الكلام : بئس الشيطان وذريته للظالمين بدلا .

ومن الملحوظ أن الأسلوب بدأ بالخطاب (أفتتخذونه) فكان الأصل أن يقال : بئس لكم بدلا ، ولكن التعبير القرآني خالف فوضع الظاهر موضع المضمر ، فانتقل من الخطاب إلى الغيبة ، وهذه صورة من صور الالتفات البلاغي ، "وفي الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ما لا يخفى"[2] .

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ للشيخ محمد الأمين الخضري صـ٨٥ . ط/ مطبعة الحسين الإسلامية . الطبعة الأولى : ١٤١٣ هـ . ١٩٩٣ م .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢٢٨/٥. ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

وفي سياق حكاية حال ماضية ، وهي قتل موسى عليه السلام للقبطي وندمه على هذا الفعل ورد ذكر عداوة الشيطان لبني آدم ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ القصص: ١٥

الإشارتان في قوله: ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾.

ومعنى : هذا من شيعته أي : من جماعته من بني إسرائيل ، وهذا من عدوه أي : من آل فرعون ، ومع أن موسى ـ عليه السلام ـ يعيش في قصورهم ، لكنه يختلف معهم في الديانة ، فأصبحوا أعداء له في العقيدة والدين ، و إنما عبر بالمفرد فقال :﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وقال: ﴿ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ، مع أن المراد الجمع (أعدائه) ؛ إشارة إلى أنهم في شدة العداوة على قلب واحد ، ومن الملحوظ أنه كان يمكن أن يقال : هذا من شيعته وهذا من آل فرعون ، وإنما وضع الصفة موضع الاسم لبيان أن الذي حمل موسى على إرادة أخذ القبطي بعنف لخلاص الإسرائيلي منه هو عداوته القبطي لهما، وكرهه لهما ، وقد يكون أيضا بسبب عداوة موسى والإسرائيلي له وكرههما له .

وقد جاءت جملة﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ مفصولة عن التي قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فقد وقعت الجملة الثانية جوابا عن سؤال أثارته الجملة الأولى ، كأن سائلا سأل: ماذا كان من أمر موسى حين فوجيء بموت القبطي ؟ فكان الجواب : هذا الموت المسبب عن ضربي له

هو من عمل الشيطان أي من إغواء الشيطان وتهييجه ، فهو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا فمات .

كما جاءت جملة﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾مفصولة عن التي قبلها وهي جملة﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ، لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، وكأن سائلا سأل : ولماذا هيج الشيطان غضب موسى حتى قتل الرجل؟ فأجيب : لأن الشيطان عدو للإنسان حريص على إضلاله ، وعصيانه لربه وقد رأى صاحب التحرير أن متعلق عدو محذوف لدلالة المقام عليه : أي عدو لآدم وذريته[1] ، كما ذهب عدنان الدليمي إلى أن "التوكيد بـ (إنّ) وإسمية الجملة بإنزال غير المنكر منزله المنكر لتقرير مضمون الجملة بعظم عداوة الشيطان واستمرارها ، وللتنبيه على ضرورة الحذر والتيقظ من الوقوع في حبائل كيده وعداوته" [2] .

وفيما سبق أشرت إلى أن التعبير بالمفرد (عدو) قد خرج عن أصله في قوله : ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ، وقوله : ﴿ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ، أما توحيده في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ القصص: ١٩ . فهو على أصله ، والمراد به القبطي ؛ لأنه ليس على دينهما ، فالوصف الأول على خلاف مقتضى الظاهر ، والثاني

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠/٩٠ .

(٢) الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية دراسة في سور الطواسين د/ عدنان مهدي الدليمي صـ ٨٥ . ط/دار غيداء للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م .

على مقتضى الظاهر ، وتنكيره كما يقول الألوسي للتفخيم ، أي : عدو عظيم العداوة[١] .

وبعد طول تأمل هداني الله إلى أن التعبير باسم الموصول وصلته وهو قوله : ﴿ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾دون أن يقال : بالقبطي ، للتعريف بالقبطي بوصفه بالعدو ، ولجعل هذا الوصف مسوغا ومبررا لإرادة البطش به ، وبعد هذا التأمل شاء الله أن أعثر قدرا على كتاب الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية دراسة في سور الطواسين ، وإذ بمؤلفه قد كشف فيه عن سر التعريف بالاسم الموصول ﴿ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ بأنه "إظهار ظلم القبطي وتعظيمه ، وتسويغ لإرادة البطش بالتنصيص على ذكر العداوة"[٢] ، فوجدت التوافق بين كلامي وكلامه ، ومثل ذلك في البحث كثير، وأحيانا أوثر تعبيرهم ، وأسر بذلك .

وهذا موضع بين سبحانه فيه عداوة إبليس لبني آدم في جملتين الأولى خبرية مؤكدة بـ(إنّ) ، والثانية إنشائية طلبية فقال :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ فاطر: ٥ – ٦

وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى أن "تأكيد الخبر بحرف التأكيد لقصد تحقيقه لأنهم بغفلتهم عن عداوة الشيطان كحال من ينكر أن الشيطان عدو"[٣] .

---

(١) روح المعاني ٢٦٧/١٠ .

(٢) الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية دراسة في سور الطواسين . صـ ٨٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٠/٢٢ .

كما ذهب أبو السعود وابن عاشور إلى أن تقديم (لكم)على متعلقه (عدو) للاهتمام بالمقدم [1]، وقد أخذ الإمام عبد القاهر الجرجاني على العلماء اكتفاءهم بتفسيرهم للمقدم بالأهمية والاعتناء فتراه يقول : "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : إنه قُدِّم للعناية ، ولأنَّ ذكرَه أهمُّ ، من غير أن يُذْكرَ من أين كانت تلك العناية وبمَ كان أهم"[2] ، وقد يكون التقديم لإفادة قصر عداوة الشيطان عليهم ، وكأنها مخصصة لهم لا لغيرهم ، قصر صفة على موصوف ، للاهتمام بأمر عداوته لهم .

ولم تكن هذه الآية الوحيدة التي تُذكر بعداوة الشيطان لبني آدم ، فقد سبقتها آيات عديدة تذكر بذلك ، وكان الغرض من تكرار ذلك شدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو ، كما أفاد مجيء العداوة بالجملة الإسمية في هذا النظم أن هذه العداوة ثابتة ودائمة ، فهو دائما لكم بالمرصاد ، وفي الأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته في كل وقت ، ومن علم أن الشيطان عدوه فاتخذه وليا كان في غاية الحمق .

ولم يكتف التعبير القرآني بتذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ، وإنما ذكر العلة من اتخاذ الشيطان عدوا فقال :﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، وجيء بها في "صيغة حصر لانحصار دعوته في الغاية المذكورة

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم٧ /١٤٤ ، والتحرير والتنوير ٢٢/٢٦٠ .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ١٠٨/١ . ت/ محمود محمد شاكر أبو فهر . مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة . الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

عقبها بلام العلة ، كيلا يتوهم أن دعوته تخلو عن تلك الغاية ولو في وقت ما"[١]، وفي هذا حث على وجوب اليقظة لتغريره وعدم طاعته.

والذي يتأمل قوله:﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ يلحظ أن حروفها قليلة، ومع هذا تضمنت معاني كثيرة ، فالإخبار بعداوة الشيطان لبني آدم تضمن معاني كثيرة ، منها أنه مضل ، وهذا حال العدو دائما ، وأنه مفسد ، غير محب للبشر ، يترصد لهم ، يوقع بينهم العداوة والبغضاء ، يحضهم على شرب الخمر والكفر بالله والإشراك به ، يحضهم على الزنا ، والربا ، إلى غير ذلك مما يوقع بني آدم في المعصية ، وهذا ما يسمى في علم البلاغة بإيجاز القصر ، وهو يعمد إلى توسيع المعنى وتكثيفه وتضمينه بألفاظ قليلة ، حتى ليصبح أكثر تأثيرا في المتلقي من خلال تصوير الأحداث ، أو تلخيصها بشكل صور ملتقطة بإيجاز خال من التطويل ، وبهذا سيترك للقارئ التخيل لما يقرأ ، وقد كثر ورود هذا النوع من الإيجاز في القرآن .

تلك هي المواضع التي نص الله فيها صراحة على عداوة إبليس لآدم وذريته ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الغرض منها هو تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ، والتأكيد على ثبوت عداوته لهم ، وشدة خطورته ، وزيادة تحذيرهم من اتباع وسوسته، وإظهار ما يترتب على اتباعه من الخسران ، كما كثر وصف العدو الأول وهو الشيطان بقوله (مبينا) زيادة في التنبيه والتأكيد على وضوح عداوته لبني آدم ، حيث كشف الله حقيقته لهم

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٦١ .

فحكى عنه تصريحه بما يفسد على بني آدم إيمانهم ، فكان بهذا عدوا ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة ، إلى غير ذلك من الفنون البلاغية المتعلقة بلفظ (عدو) ، والتي أثبتها في هذا المبحث ، وكشفت عن بعض من أسرارها .

المبحث الثاني

أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين الإنسان وبين ربه وملائكته ورسله، وأسراره البلاغية .

لم يكن دوران لفظ (عدو) في هذا المبحث بالكثرة التي جاءت في المبحث الأول ، فقد ورد أربع مرات وكلها على طريق التنكير في مقام بيان أحد قبائح اليهود ومن على شاكلتهم ، كما ورد بصيغة الجمع مرتين مضافة إلى لفظ الجلالة (الله) ، في مقام تهديد الكافرين وتخويفهم.

أما عن اليهود فتعد عداوتهم لجبريل عليه السلام أحد قبائحهم ومنكرات أقوالهم وأفعالهم ، وقد توعدهم الله عز وجل فقال:﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ البقرة: ٩٧ ، ٩٨ .

روي في سبب نزول هذه الآية عن أنس، قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ، بِقُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهْوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟، وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا» قَالَ: جِبْرِيلُ؟: قَالَ: «نَعَمْ» ،

قَالَ: ذَاكَ عَدُوٌّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فأنزل الله هذه الآية: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} (١) .

وبناء عليه ذهب صاحب التحرير إلى أن قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ " شرط عام مراد به خاص وهم اليهود ، وإنما عبر باسم الشرط (من) الذي يفيد العموم لبيان أن الله لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادي جبريل"(٢) ، وقد ناسب ذلك مجيء لفظة (عدو) نكرة في سياق الشرط لإفادة الشمول يعني : أي عدو مهما يكن جنسه ، ومهما تكن شدته ، وما قيل في تنكير (عدو) هنا يقال في تنكيرها في الآية التالية لها .

وقد أشارت الجملتان الشرطيتان السابقتان إلى أن اليهود في عهد النبي ـ ﷺ ـ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل ـ عليه السلام ـ وأن هذه المجاهرة بالعداوة ، قد تكررت منهم في مواقف متعددة بينهم وبين النبي ـ ﷺ ـ وأن الذي حملهم على ذلك هو حسدهم له ، وغيظهم من جبريل ، لأنه ينزل بالوحي عليه ، ذلك هو الغرض من ذكر الجملتين الشرطيتين ، ومن التصريح فيها بلفظ (عدو) ، كما أفاد التصريح بذكر عداوتهم أنها متحققة، ولذلك جاء التعبير بالصيغة الإسمية (عدوا) دون أن يقال : من كان يعادي جبريل .

---

(١) صحيح البخاري . كتاب: تفسير القرآن . باب : من كان عدوا لجبريل. حديث رقم (٤٤٨٠)٦/١٩. وينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي النيسابوري صـ٣٤ . ت/ كمال بسيوني زغلول. ط/دار الكتب العلمية – بيروت.الطبعة الأولى١٤١١ هـ.

(٢) التحرير والتنوير ٦٢١/١ .

وقد صرح الزمخشري بأن جزاء عداوة اليهود ومن على شاكلتهم لجبريل هو قوله ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[١] ، واعترض عليه أبو حيان في ذلك ، ورأى أن جزاء الشرط محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير: من كان عدوا لجبريل فعداوته لا وجه لها ، أو فهو عدو لي وأنا عدو له، ونحوه[٢] ، ومثله قول النبي ـ ﷺ ـ :(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)[٣].

وإنما كانت عداوة اليهود لجبريل عداوة لله تعالى ؛ لأن الله تعالى اختاره رسولا أمينا لنزول القرآن ، والآية الثانية تؤكد على أن من كان عدوا لجبريل لأجل أنه نزل القرآن على قلب محمد وجب أن يكون عدوا لله تعالى ، وأن من كان عدوا لله كان الله عدوا له.

ويتساءل الرازي : كيف يجوز أن يكون اليهود ومن على شاكلتهم أعداء الله ومن حق العداوة الإضرار بالعدو، وذلك محال على الله تعالى؟ ويجيب قائلا: والجواب أن معنى العداوة على الحقيقة لا يصح إلا فينا ؛ لأن العدو للغير هو الذي يريد إنزال المضار به، وذلك محال على الله تعالى، وإنما المراد منه أحد وجهين، إما أن يعادوا أولياء الله ، فيكون ذلك عداوة لله كقوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المائدة: ٣٣ ، وكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الأحزاب: ٥٧ ؛ لأن المراد بالآيتين أولياء الله دونه لاستحالة المحاربة والأذية عليه، وإما أن يراد بذلك كراهتهم القيام بطاعته وعبادته وبعدهم عن التمسك بذلك ، فلما كان العدو لا يكاد يوافق عدوه أو ينقاد له شبه طريقتهم في هذا الوجه بالعداوة، فأما عداوتهم لجبريل والرسل

(١) ينظر : الكشاف ١٩٦/١ .

(٢) البحر المحيط ٥١٢/١ .

(٣) صحيح البخاري. كتاب الرقاق . باب التواضع. حديث رقم(٦٥٠٢) ١٠٥/٨.

فصحيحة ؛ لأن الإضرار جائز عليهم ، لكن عداوتهم لا تؤثر فيهم لعجزهم عن الأمور المؤثرة فيهم، وعداوتهم مؤثرة في اليهود لأنها في العاجل تقتضي الذلة والمسكنة، وفي الآجل تقتضي العذاب الدائم[١].

ترتيب متعلقات لفظة (عدو) .

والناظر في جملة الشرط الثانية يلحظ تعلق العداوة بذات (الله ، وملائكته ، ورسله ، وجبريل ، وميكال) ، وقد بدأ سبحانه بذاته ، وثنى بملائكته ، وثلث برسله ؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحي، ونزوله بتنزيل الملائكة، وتنزيلهم لها بأمر الله، ، فهذا ترتيب بحسب الوحي[٢]، يقول أبو حيان : "ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم، لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط، لا بالنسبة إلى التفضيل"[٣] ، وفي كلام أبي حيان هذا رد على قول الزمخشري بأن الملائكة أشرف من الأنبياء حيث قال: "وإذا كانت عداوة الأنبياء كفرا، فما بال الملائكة؟ وهم أشرف"[٤] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٦١٣/٣ .

(٢) ينظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني ٨٠/١ .ط/ مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة ١٢٨٥ هـ ، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد الجاوي ٣٤/١ .ت/ محمد أمين الصناوي . ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى – ١٤١٧ هـ .

(٣) البحر المحيط ٤٩٠/١ .

(٤) الكشاف ١٧٠/١ ، وقد علق ابن منير السكندري على هذا الكلام قائلا : هذا عند المعتزلة ، أما أهل السنة فالأنبياء أشرف (حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف).

من جهة أخرى ترى أن الله ـ تعالى ـ قدم جبريل على ميكائيل لأفضليته ، فجبريل هو ملك الوحي الذي هو حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل هو ملك الرزق الذي هو حياة الأجساد، وغذاء الأرواح أفضل من غذاء الأجساد(١) ، وقد دلل الألوسي على أفضلية جبريل ـ عليه السلام ـ على سائر الملائكة فقال : "وأنا أقول بالأفضلية وليس عندي دليل أقوى من مزيد صحبته لحبيب الحق بالاتفاق وسيد الخلق على الإطلاق ﷺ وكثرة نصرته وحبه له ولأمته، ولا أرى شيئا يقابل ذلك ، وقد أثنى الله ـ تعالى ـ عليه ـ عليه السلام ـ بما لم يثن به على ميكائيل ، بل ولا على إسرافيل وعزرائيل وسائر الملائكة أجمعين"(٢) ، **وأرى والله أعلم بمراده أن تقديم جبريل على ميكائيل قد يكون للاهتمام به ردا على اليهود في دعوى عداوته ـــ عليه السلام ـــ ، وقد أفردا مع دخولهما تحت عموم الملائكة بيانا لفضلهما .**

وقد توعد الله من يعاديه ويعادي رسله وملائكته ـ في جملة جواب الشرط ـــ بالعداء والعقاب فقال : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: من عادى الله وملائكته ورسله عاداه الله وعاقبه أشد العقاب ، "وإيثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات"(٣) ، "وذكر اسم الجلالة بلفظه الظاهر ولم يقل : فإني عدو ، أو فإنه عدو ؛ لما يشعر به الاسم الظاهر هنا من القدرة العظيمة على حد قول الخليفة: «أمير المؤمنين يأمر بكذا» حثا على

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٦١٣/٣ ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٥٥/٣، ٢٥٦ . ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط/ دار المعرفة – بيروت، ١٣٩١هـ .

(٢) روح المعاني ٣٣٣/١ .

(٣) إرشاد العقل السليم ١٣٤/١ .

الامتثال"[1] ، وقد ناسب ذلك تنكير لفظة (عدو) في جملة جواب الشرط حيث لا يعلم أحد قدر وعظم قوته ـ سبحانه ـ وأخذه وبطشه إلا هو ـ سبحانه ـ ، فالتنكير للتفخيم والتعظيم ؛ لكونها منسوبة إلى الاسم الأعظم الذى له كل الجلال والكمال .

وقد لحظت أن الجار والمجرور المتعلق بعدو وهو قوله : (للكافرين) قد انتظم في موقعه الأصلي مراعاة للفاصلة ، في حين جاء في آيات سابقة تقديم المتعلق بعدو مع أن حقه التأخير مراعاة للفاصلة ، وهكذا يعمد النظم الحكيم إلى تقديم ما حقه التأخير في مواضع ، وإلى الأصل في الترتيب في مواضع أخرى مراعاة للانسجام الصوتي للفواصل ، كما كان في وضع المظهر (للكافرين) موضع المضمر (لهم)؛ مراعاة لذلك ، وبيان بأن سبب عداوته ـ تعالى ـ لهم هو الكفر، وليس لذواتهم ولا لأنسابهم .

وهنا ملحظ عام ـ قد أكون موفقا فيه ـ وهو أنك إن عددت الشيطان ضمن الكافرين في قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾، وكذلك إن عددته ضمن الأعداء في قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾، يكون بذلك قد وصف الشيطان صراحة بأنه عدو لله ، أما إذا لم تعده ضمن ما ذكر ، فإن ذلك يعني أن الشيطان لم يوصف صراحة في القرآن بأنه عدو لله ، ولم يذكر الله ـ عز وجل ـ في القرآن أبدا أن الشيطان عدو لي ، في حين أنه جعل من بني أدم أعداء له ، فقال في حق فرعون لما التقط موسى ـ عليه السلام ـ :﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، وقال:﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ ، والسر في ذلك هو أن تأثير شيطان الإنس على بني أدم أعظم من تأثير

(١) التحرير والتنوير ١/ ٦٢٤ .

شيطان الجن ، فشياطين الجن بمجرد أن تستعيذ بالله منهم يفرون ، ويمكن أن تتقي عداوتهم بذلك ، بخلاف شياطين الإنس، لو قرأت القرآن كله عليهم لا يفرون ولا يتعظون .

وعلى شاكلة اليهود هؤلاء المشركين الذين لا يقدرون الله حق قدره ، إذ قد اتخذوه عدوا بدلا من اتخاذه وليا ، وقد دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٨ .

في هذه الآية نهى الله عباده المؤمنين عن سب الأصنام ؛ حتى لا يسب المشركون الله ـ تعالى ـ .

وقد قرأ الجمهور (عَدْوا) بفتح العين وسكون الدال : أي : ظلما وتجاوزا لحدود الأدب ، وقرأ يعقوب (عُدُوًا) بضم العين والدال وتشديد الواو ، وقرأ ابن كثير (عَدُوًّا) بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو، وعلى هذه القراءة إما أن يكون اللفظ (عَدُوّاً) حالا من الضمير في قوله (فيسبوا) ، وعليه يكون اللفظ مفردا مخبرا به عن الجمع ، والمعنى : ولا تسبوا الأصنام التي يدعونها المشركون من دون الله فيسبوا الله ، وحالهم أنهم أعداء له [(١)] ، وإما أن يكون اللفظ (عَدُوّاً) حالا من لفظ الجلالة ، وعليه يكون الإفراد على أصله ، وفي هذا المعنى ذهب الماوردي إلى أن أهل مكة قرأوا (عَدُوّاً)

(١) ـ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٦/١٢ . ت/ أحمد محمد شاكر .ط/ مؤسسة الرسالة .الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ، والكشاف ٥٣/٢ .

بالتشديد بمعنى أنهم اتخذوه عدوّاً[1] بدلا من اتخاذه وليا، (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) .

تهديد الله ـ عز وجل ـ لأعدائه .

يهدد الله ــ عز وجل ــ في موضعين الكافرين ، ويخوفهم ، ويسميهم أعداء له فيقول : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ فصلت ٢٧ ، ٢٨ .

ويقول: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ فصلت: ١٩ – ٢١ .

المراد بأعداء الله في الموضعين السابقين : جميع الكافرين (الأولين والآخرين منهم) ، هذا قول أكثر أهل العلم ، أما الطاهر بن عاشور فقد خالفهم فيما ذهبوا إليه ورأى أن المراد بأعداء الله : هم مشركو قريش ؛ لأنهم أعداء رسوله ـ ﷺ ـ ، ولا يجوز أن يكون المراد بـ(أعداء الله) جميع الكفار من الأمم بحيث يدخل المشركون من قريش دخول البعض في العموم ؛ لأن ذلك المحمل لا يكون له موقع رشيق في المقام ؛ لأن الغرض من ذكر ما أصاب عادا وثمود هو تهديد مشركي مكة بحلول عذاب مثله في الدنيا ؛

(١) . ينظر : النكت والعيون للماوردي ١٥٥/٢ . ت/السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم .ط/ دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

لأنهم قد علموه ورأوا آثاره، فللتهديد بمثله موقع لا يسعهم التغافل عنه[١]، وأرى أن الأول أولى، فكما هو معلوم أن المعتد به عموم اللفظ لا خصوص السبب.

ويعلل الطاهر بن عاشور تسمية الكافرين بأعداء الله بأن ذلك لذمهم ، والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب[٢]، هكذا علل صاحب التحرير بأن إضافة لفظ (أعداء) إلى الله لذمهم ، وتهجين فعلهم ، وتسفيه عقولهم ، إذ امتنعوا عن أن يكونوا أولياء الله ، وارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أعداء الله ، شتان بين حالهم هذا وحال المؤمنين ؛ إذ يقول الله في حقهم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يونس: ٦٢ .

وفي هذا المعنى يقول الشيخ الخطيب وفي "وصفهم بالأعداء تهديد لهم ، ووعيد من الله ــ سبحانه ــ الذي يقف منه هؤلاء موقف الأعداء المحاربين.. فليأذنوا بحرب من الله ورسوله، وسيرون ما يطلع عليهم من هذه الحرب، من خزى وهوان، وما ينتهى إليه أمرهم من هلاك ودمار، ثم من عذاب أليم فى جهنم خالدين فيها"[٣] .

وقد لا يجانبني الصواب إذا قلت : إن في التعبير بصيغة الجمع (أعداء) إشارة إلى أن أعداء الله يومئذ كثير ، وسيُحشرون جميعاً بحيث لا يتفلت ولا يغيب منهم أحد ، وأن وحدتهم التي كانوا عليها في معركتهم مع

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٦٤/٢٤ ، ٢٦٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٩/٨ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب ١٣٠٢/١٢ . ط/ دار الفكر العربي – القاهرة .

المؤمنين في الدنيا ستنقلب فرقة وخصومة من هول ما يرونه يوم القيامة ، فتتعدد مذاهبهم ، كما يشير الجمع أيضا إلى استفظاع شأنهم ، وتحقيرهم بأن صاروا أعداء كثيرين لمن لا يصح أن يكون له عدو قط ، فضلا عن أن صيغة الجمع هنا أولى بمقام التخويف والتهديد .

وقد قرأ الجمهور يُحشر مضمومة الياء مبنيا لما لم يسم فاعله ، ورفع أعداء على النيابة ، وقرأ نافع نحشر بالنون مبنيا للفاعل ناظراً إلى قوله (ونجينا) فصلت : ١٨ ، ونصب أعداء على المفعولية ، وكسر الأعرج شين «يحشِر» ونصب أعداء على المفعولية ، وهذه القراءات على اختلافها فإنها جميعا تفيد معنى العظمة ؛ لأن الأفعال مسندة إلى الاسم الأعظم الذي له كل الجلال والكمال .. والتقدير يَحشر الله ـ عز وجل ـ أعداءه الكفار الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره (من الأولين والآخرين) ، ويقويه قوله: (يوم نحشر المتقين) ، وقوله : (وحشرناهم) .

ثم إن الإخبار بهذه الصورة التي ستحدث لأعداء الله يوم القيامة والتذكير بها جعلها كأنها حاضرة مشاهدة تراها عيوننا وتسمعها أذننا، فكأننا نرى أعداء الله أمامنا، وأن ما سيقع لهم يوم القيامة حاضر مشاهد، وهذا الصورة قد جاء أسلوبها قويا نافذا من شأنه أن يثير الرعب والخوف في النفوس وهو مما استهدفته الآيتان لأعداء الله .

هكذا أفادت لفظة (عدو) في هذا المبحث مجاهرة اليهود بعداوتهم لجبريل عليه السلام ، ولله وملائكته ورسله ، كما أفادت أن عداوتهم لهؤلاء متحققة وثابتة، ثم إنه تعالى لم يصرح بجزاء عداوتهم لجبريل في الموضع الأول لدلالة ما ذكر في الموضع الثاني عليه ، وقد أفصحت عن الهدف من مجيء لفظ (عدو) في الموضع الأول ، وفي جملة فعل الشرط من

الموضع الثاني نكرة وهو إفادة الشمول ، ولا يخفى أثر ذلك في اتساع المعنى ، وعلى منواله جاء نكرة في جملة جواب الشرط من الموضع الثاني للتفخيم والتعظيم .

المبحث الثالث

أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين بني آدم، وأسراره البلاغية .

قسمت هذا المبحث ثلاث صور ، تنوعت فيها أغراض التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته بين بني آدم ، كما تنوعت فيها الألفاظ على عكس ما جاء في المبحث الأول ، فقد كثر فيه دوران ألفاظ (عدو ، عداوة ، أعداء ، عادى) ، حيث بلغت مواضعها في هذا المبحث ثمانية وعشرين موضعا، وقد تنوعت طرق التعبير بها ، فمنها ما ورد بطريق التنكير ، ومنها ما جاء بطريق التعريف ، ومنها ما ورد بطريق الفعل وهو لفظ (عادى) ، والذي جاء في موضع واحد من النظم الحكيم ، إلى غير ذلك من طرق التعبير التي وردت بها تلك الألفاظ ، ويعد هذا المبحث هو المتفرد باحتوائه على جميع مشتقات لفظ العداوة .

ونأتي إلى الصورة الأولى وهي: تعلق العداوة بالمسلمين والكافرين، والذي ورد في إحدى وعشرين موضعا ، وفيها : ـ النص على عداوة اليهود للمسلمين .

صرح الله ـ عز وجل ـ في موضعين بالعداء المتأصل بين اليهود والمسلمين ، وكشف عن نواياهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ النساء: ٤٤ – ٤٥.

وأجد من الضروري أن أشير إلى أن المراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ﴾ هم اليهود ، والمراد بـ ﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هو التوراة ، هذا هو الظاهر عند أهل العلم ، وإنما صار اليهود أعداء للمسلمين لأنهم حرفوا عبارات التوراة ؛ لينفوا ما فيها من دلائل على صدق وصحة رسالة النبي محمد ـ ﷺ ـ ؛ ولأنهم يكيدون لدين الله، ولرسوله وللمؤمنين ، وفيهم يقول الله سبحانه: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾المائدة : ٨٢ .

وهذا الخبر ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ معناه أن الله أعلم منكم أيها المؤمنون بعداوة هؤلاء اليهود، فلا تستنصحوهم، ولا تستشيروهم ، فهو ـ سبحانه ـ أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد ، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل ، ويريدون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا ، فبالله أيها المؤمنون فثقوا ، وعليه فتوكلوا ، وإليه فارغبوا دون غيره، يكفكم ما أهمكم وينصركم على أعدائكم(١).

والناظر إلى موقع هذا الخبر ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ يراه اعتراضا بين البيان وهو قوله : (الم تر إلى الذين ..) والمبين وهو قوله : (من الذين هادوا ... ، وقد اشتمل الاعتراض على ثلاث جمل ، الجملة الأولى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ ﴾ الغرض منها تنبيه المؤمنين إلى أن الله أعلم بما يكنه اليهود للمؤمنين من العداوة والحقد والحسد ، وبيان علة عدم استنصاح واستصحاب اليهود ، وفي

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن ٤٢٩/٨ .

وصف اليهود بالأعداء "تنبيه على الوصف المنافي لوداد الخير للمؤمنين وهي العداوة ، وفيه إشارة إلى التحذير منهم، وتوبيخ على الاستنامة إليهم والركون"(١) .

وأما الجملة الثانية والثالثة فهما قوله :﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ الغرض منهما "طمأنينة نفوس المؤمنين بنصر الله، لأن الإخبار عن اليهود بأنهم يريدون ضلال المسلمين، وأنهم أعداء للمسلمين، من شأنه أن يلقي الروع في قلوب المسلمين، إذ كان اليهود المحاربون للمسلمين ذوي عدد وعدد، وبيدهم الأموال"(٢)، يضاف إلى ذلك ذم اليهود ؛ لأنهم ليسوا أهلا للولاية ولا النصرة .

ويلحظ أن الله تعالى لما وصف اليهود بالأعداء كان من تمام المناسبة التصريح بنصر المؤمنين على أعدائهم فقال: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ ، وكان الأصل في غير كلام الله أن يقال : وكفى به ، ولكنه سبحانه أظهر الاسم الأعظم (الله) وكرره لتستحضر عظمته ، فيستهان أمر الأعداء(٣) ، وقد يكون الغرض من الإظهار والتكرار التبرك به للنصرة على الأعداء ، ولا أجد مانعا من إرادة المعنيين ، فالأغراض البلاغية لا تتزاحم .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الله تعالى آثر التعبير بصيغة الجمع (أعدائكم) في هذا الموضع ، في حين عبر في مواضع أخرى بالمفرد (عدو) مع أن المراد الجمع، والسر في إيثار التعبير هنا بالجمع هو تمام

(١) البحر المحيط ٣/٦٥٨ .
(٢) التحرير والتنوير ٥/٧٢ .
(٣) ينظر نظم الدرر ٢/٢٦٢ .

المناسبة مع صيغة أفعل التفضيل (أعلم) ، فهو ـ سبحانه ـ يريد أن يبين أن علمه محيط بالأعداء كلهم هؤلاء اليهود وغيرهم ، فهو سبحانه لا تخفى عليه عداوة أحد من أعداء الإسلام وغيرهم ولو كثر عددهم ، وفي هذا المعنى يقول الشيخ الشعراوي : "قد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال: أنتم عالمون بأعدائكم ، لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد يكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك، أو عداوة من أولادك ، أو كل هذه العدوات جميعها أو بعضها ، وهؤلاء في ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبين عداوتهم جميعا، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون؛ لذلك قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ ﴾"[1] .

أما الموضع الآخر الذي نص الله فيه على عداوة اليهود للمسلمين فهو قوله تعالى : ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ ﴾ المائدة: ٨٢

الغرض من النص على عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين .

ويستدعي وصف اليهود والمشركين بعداوتهم الشديدة للمؤمنين أن يكون المؤمن حذراً منهم غير واثق بعهودهم "لأن العداوة طبيعة أصلية ومتجدِّدة فيهم ما داموا يهودًا، وهذا ما تدل عليه صيغة المضارعة التي تقوم على التجدد والاستمرار في (تجدن)، وهو ما يتفق مع طبيعتهم

(١) تفسير الشعراوي ٢٢٧٨/٤ . مطابع أخبار اليوم .

العنيدة القاسية"[1]، وقد كانت ولا تزال معاداة اليهود للمؤمنين بسبب إيمان المؤمنين بموسى وعيسى ومحمد ـ ﷺ ـ، أما معاداة المشركين للمؤمنين فهي بسبب توحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء .

وقد بدئت الآية بتأكيدين في كلمة (لتجدن) لام القسم في أولها ، ونون التوكيد في آخرها وذلك للتأكيد على تحقق مضمونها ، وهو أن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة ، أي أكثرهم سعيًا في إلحاق الضرر بالمؤمنين ؛ لشدة بغضهم وبغيهم وحسدهم لهم؛ وأن النصارى أقرب الناس وِدادًا لأهل الإيمان من أهل الملل المخالفة للإسلام .

هكذا صدرت الآية بالتأكيد ليدل على أن شدة عداوة اليهود والمشركين ومودة النصارى للمؤمنين أمر واقع ، مؤكد الوقوع ، لا احتمال فيه لشك ، ثم إن تقديم ذكر اليهود على المشركين فيه تنبيه على أنهم أشد في العداوة من المشركين[2]، كما أن في "وصف الله اليهود بأنهم أشد عداوة إشعارا بصعوبة إجابتهم إلى الحق، ولذلك قل إسلام اليهود"[3].

ويبين الألوسي سر التعبير بالموصول في جانب المشركين ، والمؤمنين ، والنصارى فيقول "ولعل التعبير بالذين أشركوا دون المشركين مع أنه أخصر للدلالة على شدة اتصافهم بهذه الصفة وهي صفة الشرك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ مبالغة في الذم ، وقيل : ليكون على نمط (الذين آمنوا) والتعبير به دون المؤمنين للدلالة على شدة اتصافهم بهذه الصفة وهي صفة

---

(١) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية . د/علي علي صبح صـ٧٨ . ط/ المكتبة الأزهرية للتراث .

(٢) ينظر الكشاف ٧٠١/١ .

(٣) ينظر البحر المحيط ٣٤٣/٤ .

الإيمان بالله ـ عز وجل ـ ، والتعبير بقوله ـ سبحانه وتعالى ـ :(الذين قالوا إنا نصارى) دون النصارى إشعار بقرب مودتهم ؛ حيث يدعون أنهم أنصار الله ـ تعالى ـ وأوداء أهل الحق وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام"[١].

ومن الملحوظ أن الله ـ تعالى ـ لما قال في حق اليهود﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً ﴾ لم يقل في حق النصارى ولتجدن أضعفهم عداوة ، وإنما قال :(ولتجدن أقربهم مودة) للدلالة على البون الشاسع بين مودة النصارى وعداوة اليهود بالنسبة للمؤمنين وهذا ما يهدف إليه الطباق بين لفظي (عداوة ، ومودة) ، وعلى أن النصارى أصلح حالا من اليهود وأقرب إلى المؤمنين مودة[٢] .

وقد يقال إن هذا الوصف الذي أطلق على اليهود والمشركين مختص بيهود المدينة وكفار قريش ، والوصف الذي أطلق على النصارى مختص بحادثة وقعت في عهد النبي بين الصحابة والنجاشي حين دعا جعفرا وأصحابه، وأحضر القسيسين والرهبان، وأمره أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فبكوا وآمنوا بالقرآن ، وقد يقال بأن صدر الآية عام وعجزها خاص بالحادثة السابقة ، وأرى أن هذا خبر مُطْلق منسحب على الزمان كله .

تخويف العدو الظاهر والخفي .

أمر الله المؤمنين أن يأخذوا حذرهم بإعداد ما تيسر لهم من قوة لتخويف العدو الظاهر والخفي فقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

(١) روح المعاني ٤/٤ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٣٤٤/٤ .

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الأنفال: ٦٠

الموصوفون بأنهم عدو الله وعدو المسلمين في هذه الآية هم كفار مكة ومن على شاكلتهم في كل وقت ، وقد توقف أبو حيان عند قوله: ﴿ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾، وبين السر من ذكر قوله (عدوكم) مع أن قوله (عدو الله) يغني عما ذكر بعده فقال "وذكر أولا عدو الله تعظيما لما هم عليه من الكفر وتقوية لذمهم ، وأنه يجب لأجل عداوتهم لله أن يقاتلوا ويبغضوا ، ثم قال (وعدوكم) على سبيل التحريض على قتالهم ، إذ في الطبع أن يعادي الإنسان من عاداه وأن يبغي له الغوائل ، والمراد بهاتين الصفتين من قرب من الكفار من ديار الإسلام من أهل مكة ومشركي العرب"[1] ، **وتوجيه أبي حيان لذكر (عدو الله) ملحوظ فيه أيضا إضافة (عدو) إلى اسم الجلالة** .

وقريب مما ذكره أبو حيان قول الشيخ الشعراوي : " ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط ، وقد سلطكم سبحانه عليهم ، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين ، وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين"[2].

وقد جاءت جملة ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ لبيان المقصود من الإعداد ، وهو تخويف عدو الله

(١) البحر المحيط ٣٤٥/٥ .

(٢) تفسير الشعراوي ٤٧٧٩/٨ .

وعدو المسلمين حتى لا يعتدوا على المسلمين ومقدساتهم ، "فالعدو لا يؤمن جانبه، ولذا يجب الحذر الدائم من أعماله ومخططاته، فإن آثر الحرب كنا مستعدين له، وإن رغب في السلم سالمناه، ويلزم في كل حال الاستعانة بالله إذا راوغ العدو وحاول الخداع"(١).

وإعداد القوة التي أمرنا نحن المسلمين بها من تدريب وتسليح مع الإيمان بالله لتخويف الأعداء تشمل مختلف أنواع القوى ، وقد أسهم في بيان ذلك وقوع لفظ(قوة) نكرة المفيدة للعموم ، أي عموم كل قوة يتم بها إخافة العدو بما يناسب كل عصر وزمان ، من قوة عقلية وبدنية ، وقوة تسليح من سيوف ورماح ونبال وخيل في جيوش العصور الماضية ، ودبابات ومدافع وطائرات وصواريخ وأسلحة نووية وغيرها من مخترعات العصر الحديث ، وقد بين النبي ﷺ أن (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ..)(٢) ، والتعبير بالقوة مجاز مرسل ؛ لأن القوة مسببة عن الأسلحة وناشئة عن امتلاكها، فأطلق اسم القوة على السلاح من إطلاق المسبب على السبب، ولم يمنع العلامة ابن القيم أن تحمل الآية على المجاز بالحذف ، ويكون التقدير: وأعدوا لهم ما استطعتم من أسباب القوة أو من أدوات القوة(٣) ، وفي التعبير بقوله: ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ رحمة بالغة من

(١) التفسير الوسيط للزحيلي ٨١٦/١ . ط/ دار الفكر – دمشق . الطبعة : الأولى – ١٤٢٢ هـ .

(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم كتاب القدر . باب في الأمر بالقوة حديث رقم (٢٦٦٤) ٢٠٥٢/٤ .ت/ محمد فؤاد عبد الباقي . ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٣) ـ ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية .صـ٣٢ . ط/ دار الجنان للنشر .

الله ـ عز وجل ـ ؛ لأنه ما كلفنا فوق استطاعتنا ، وإنما كلفنا أن نعد العدة المتاحة، والله يؤيدنا بنصره على أعدائنا، ما دمنا صادقين في نصرته.

ونأتي إلى العدو الخفي المشار إليه في قوله ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ، وقد رجح الفخر الرازي أن المراد به : المنافقون ، وعلل لذلك بأن " المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات، ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق بين المسلمين– بطرق قد لا تعرف، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم وترك الأفعال المذمومة"(١) ، وتبعه البقاعي في ذلك وسار في ركابه مبينا أن حمل الآخرين على المنافقين هو الأليق لوصفهم بقوله : (لا تعلمونهم) ؛ ولأن الله وصفهم في آية أخرى بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾ التوبة: ١٠١ (٢) .

وقد علق الشيخ عبد الكريم الخطيب على ذاك المقطع قائلا "وفي هذا إشارة وتنبيه للمسلمين إلى ألا يكون حسابهم فى إعداد القوة مقصورا على هذا العدوّ الظاهر لهم، ومقدورا بقدره، بل يجب أن يعملوا فى تقديرهم حسابا لأعداء آخرين، لم يظهروا لهم، ولم يواجهوهم بعداوة أو قتال.. ، وهذا يعنى أن يبذل المسلمون كثيرا لإعداد هذه القوة التي يحاربون بها أعداءهم الذين يرونهم، والتي يرصدونها للعدو الخفى الذي لم يظهر لهم بعد"(٣).

---

(١) ـ مفاتيح الغيب ١٥/٥٠٠ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٣/٢٣٦ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٥/٦٤٩ .

ولا مانع من أن يكون المراد من قوله ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ المنافقين في زمن النبي ـ ﷺ ـ وغيرهم ممن يأتي بعدهم ، فتكون هذه لفتة من الله ـ عز وجل ـ إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا في أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم، ولكن هناك خلقا كثيرا سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمهم(١) ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ، كما قال الدكتور دراز : "وتقرأ القطعة من القرآن فنجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسها دون كد خاطر ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات بل ترى صورا وحقائق ماثلة ، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبرا ووقفت على معناه محدودا؛ هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوها عدة ، كلها صحيح أو محتمل"(٢) .

وكما أمر الله المسلمين بإعداد القوة لتخويف العدو الظاهر والخفي في الموضع السابق يحذر أيضا في هذا الموضع من خطورة أعداء متخفين في الصف الإسلامي وهم المنافقون فيقول :﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المنافقون: ٤ .

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي ٨/٤٧٨٠ .

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم . د/ محمد عبد الله دراز صـ١٥١ . اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية . قدم له : د/ عبد العظيم المطعني . ط/ دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

فقوله (هم العدو) إخبار من الله تعالى بأن المنافقين هم العدو ، وتعريف (العدو) بالألف واللام للجنس، وإليه ذهب ابن عاشور بقوله : " والتعريف في (العدو) تعريف الجنس الدال على معين ؛ لكمال حقيقة العدو فيهم "(١)، وقد تم انتخاب لفظة (العدو) في هذا النظم لغرض ذم المنافقين ، وكشف حقيقتهم بأنهم خصوم للمسلمين، يتربصون بهم الدوائر ، ويتمنون الوقيعة بهم في حين يظهرون لهم المودة ، وفي هذا ما يوجب الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابة .

وتعريف الطرفين أفاد أن المنافقين على وجه الخصوص هم الكاملون في العداوة ، هم الأعداء الحقيقيون ؛ لكونهم مستترون في الصف الإسلامي ، وبهذا يعدون أخطر من العدو الخارجي الصريح ، يقول الزمخشري : "هم العدو الكاملون في العداوة ؛ لأن أعدى الأعداء العدو المداجي ، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي"(٢) .

وهذا القصر المستفاد من تعريف الطرفين هو قصر صفة العداوة الكاملة عليهم، **أي** : لا عدو إلا هم، وهو قصر حقيقي مبني على الادعاء والمبالغة بتنزيل عداء غيرهم في جانب عدائهم منزلة العدم، ومثل هذا القصر يدل على كمال الموصوف في تلك الصفة المقصورة ، يقول الشنقيطي : "قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ فيه ما يشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود، ولكن إظهار المشركين شركهم، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعا ، أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه، قد يوحي بالركون إليهم ولو رغبة في تأليفهم، فكانوا

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/٢٨ .

(٢) الكشاف ٥٤٣/٤ .

أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلتهم مع المسلمين، مما يمكنهم من الاطلاع على جميع شئونهم" [١].

ويلحظ أنه تعالى لم يقل : هم الأعداء ، وإنما ـ كما يقول البقاعي ـ "أخبر بالمفرد الذي يقع على الجمع دون الجمع إشارة إلى أنهم – في شدة عداوتهم للإسلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه – على قلب واحد وإن أظهروا التودد في الكلام والتقرب به إلى أهل الإسلام ، فإن ألسنتهم معكم إذا لقوكم ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم ، فهو عيون لهم عليكم"[٢] .

العدو في معرض المجاهدة والقتال .

ورد لفظ (عدو) في سياق تشريع إباحة قصر الصلاة حال سفر المسلمين ، أو خروجهم إلى قتال أعدائهم الكفار وخافوا أن يتعرضوا للأذى منهم وقت انشغالهم بالصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ النساء: ١٠١

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن قوله : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ كلام معترض، وبعضهم رد هذا القول معللين بأن في الحمل على هذا تكلف شديد [٣] ، والظاهر أن هذه الجملة الخبرية تعليلية لما تقدم من

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ١٩٢/٨ . ط/ دار الفكر للطباعة بيروت . لبنان ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .

(٢) نظم الدرر ٦٠٩/٧ .

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٦٢/٥ .

إباحة قصر الصلاة حال سفر المسلمين ، أو خروجهم إلى قتال أعدائهم الكفار ، وخافوا أن يتعرضوا للأذى منهم حين انشغالهم بالصلاة ، فإن كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء(١)

وقد سيقت هذه الجملة التعليلية لغرض بلاغي هو تنبيه المسلمين إلى الخطر الذي يواجههم من أعدائهم، وأن عليهم أن يأخذوا حذرهم منهم، فيحتفظوا بأسلحتهم حتى لا يميل عليهم الكفار ويأخذوا أسلحتهم وأمتعتهم ، فهم العدوّ الذي لا تخفى عداوته ، يقول الشيخ الشعراوي : "وحين يكون لك عدو في الحارة ، أو في البلدة ، وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هَنة وعيب حتى لا يشنّع عليك؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم ؛ لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك ، والشاعر القديم ، الذي أعجبه الشعر فشطره ، يقول لك:

عدايَ لَهُمْ فَضْلٌ عليَّ ومِنَّةٌ ... فَعِنْدي لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا

فَهُمْ كدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّهِ ... فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّي الأعَادِيَا

هُم بحثُّوا عَنْ زَلَّتي فَاجْتنبتُها ... فأصبحت مِمَّا دنس العرض خاليا

وهم أَجَّجُوا جَهدي ولكن ببغضهم ... وهُمْ نافسُوني فاكتسبْتُ المعَاليَا"(٢)

وذلك غيض من الفيض الذي يفيده التعبير بالوصف (عدوا) .

ويلحظ أن الله تعالى حينما ذكر المؤمنين بعداوة الكافرين لهم أكد على أخذ الحذر من الكفار دائما بـ (إنَّ) الدالة على التوكيد ، فنزلهم منزلة من يشك في الخبر زيادة في التحذير منهم ، كما عبر بـ (كان) المفيدة للدوام

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢/٢٢٦ .

(٢) تفسير الشعراوي /٣٨٧٦ .

والاستمرار [١] للدلالة على دوام واستمرار عدواتهم للمؤمنين ، فهؤلاء الكافرون كانوا واضحين في عدائهم للمؤمنين ، وما زالوا كذلك ، كما وصف هذه العداوة بمزيد من الوضوح، لكي يحترس المسلمون منهم أشد الاحتراس .

وفي هذا النظم فن بلاغي آخر وهو الخروج عن مقتضى الظاهر ؛ حيث عبر ب (عدو) الموضوع للمفرد ولم يقل : أعداء مبينين ، قال بعض أهل العلم أفرد عدوا مع أن المراد به الجمع ؛ لأن العدو يستوي فيه الواحد والجمع ؛ لأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، هكذا صرح به بعض من العلماء [٢]، والبلاغة لا يكتفى فيها بمثل هذا ، ولا يمكن للبلاغي أن يقف عند هذه النظرة الضيقة ، ومن ثم اتجه بعض العلماء إلى الكشف عن السر، فهداهم الله إلى أن التعبير عن هؤلاء الكفرة بأنهم عدو لئلا يميل أحد من المسلمين إلى هؤلاء المشركين ، فكلهم صورة واحدة متكررة بأجساد مختلفة ، وهم يد واحدة على المؤمنين ، وعلى قلب رجل واحد ، وكل ذلك على سبيل التحذير ، وقد ورد إفراد عدو في موضع الجمع في أكثر من موضع من القرآن ، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الشعراء: ٧٧ ، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ الكهف: ٥٠، وقال تعالى ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ المنافقون: ٤.

وفي سياق نهي المخلفين [٣] عن الخروج إلى الغزو مع الرسول وقتالهم أعداء الله ورد لفظ عدو في قوله: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ١٢٦/٤ .

(٢) على سبيل المثال ينظر مفاتيح الغيب ٢٠٤/١١ .

(٣) الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر

لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ التوبة: ٨٣ .

فقوله: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ ﴾ إخبار في معنى النهي ، وفيه من محاسن البلاغة: "الانتقال بالنفي من الشاق عليهم وهو الخروج إلى الغزو إلى الأشق، وهو قتال العدو؛ لأنه عظيم الجهاد ، وثمرة الخروج، وموضعُ بارقة السيوف التي تحتها الجنة"(١).

وفي نهيهم عن قتال أعداء الله إهانة وتحقير لهم، وقد زاد من إهانتهم وتحقيرهم وذمهم بالتعبير بلفظ (عدو) دون أن يقال : الكافرين ، لأن هذا اللفظ يحمل معنى العداء والإيذاء ، والواجب على المسلم تجاه هذا العدو الذي يحاربه ويريد القضاء عليه أن يعد له ما استطاع من قوة ، ويسارع لقتاله وليس أن يتخلف عن قتاله .

وفي النهي إشارة ـ أيضا ـ إلى نبذ من يضعف ويتخلف عن قتال أعداء الله بعيدا عن صفوف المجاهدين وقاية من الهزيمة .

وفي تنكير كلمة (عدوا) في سياق النهي إفادة العموم ، أي هم منهيون عن قتال أي عدو في أي مكان ، ولهذا أغنى كونها مفردة نكرة عن التعبير بالجمع .

وهذا موضع ثالث حث الله فيه المؤمنين على مجاهدة أعداء الدين فقال: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى

(١) البحر المحيط ٤٧٦/٥ .

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ التوبة: ١٢٠ .

الغرض من ذكر لفظة (عدو) في هذا الموضع هو: حث المؤمنين على قتال الكافرين الذين يتربصون ويكيدون للمسلمين ، فقد كان من الممكن أن يقال : ولا ينالون من الكفار نيلا ، كما قال : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ ، ولكنه سبحانه عبر عن الكفار بلفظ (عدو) لما تؤذن به هذه الصفة من تربص الكفار بالمؤمنين وشدة بغضهم للمؤمنين ، فهم يتمنون أن يصاب المسلمون أي مكروه ، كما أنهم يحاولون أن يؤذوا المسلمين عند أدنى فرصة ، وهذا أدعى إلى مجاهدتهم والنيل منهم ، كما تشير اللفظة إلى أنه لا أمل في مودتهم طالما هم على الكفر ، ولذلك قيل : ـ

كل العداوات قد ترجى مودتها ... إلا عداوة من عاداك بالدين.

وقد أفاد مجيء لفظ (عدو) نكرة في سياق النفي العموم ، فشمل جميع أعداء الله ورسوله في كل مكان وفي أي زمان ، مساويا للعموم المستفاد من التعريف بالألف واللام في لفظ (الكفار) ، "وأطلق نيلا ليعم القليل والكثير مما يسوءهم قتلا وأسرا وغنيمة وهزيمة"(١)، وفي تنكير (نيلا) بيان بأن النيل من العدو بشيء حتى وإن كان صغيرا فهو عمل صالح لهم به أجر عظيم عند الله .

(١) . البحر المحيط ٥٢٣/٥ .

النهي عن موالاة أعداء الله والتودد إليهم .

افتتح الله عز وجل سورة الممتحنة بالنهي عن موالاة أعدائه والتودد إليهم فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ الممتحنة: ١ .

وأول ما يلحظ في هذه الآية هو أن الله ـ تعالى ـ لم يقل : لا تتخذوا الذين كفروا بي ، وإنما قال (عدوي) ، فعبر عن الكافرين بلفظ عدو المنافي للالتئام، لتقبيح الموالاة ؛ لأن العداوة تتنافى مع الموالاة ، ففيه بيان بأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن تتخذوهم أصدقاء أو أحباء لكم ، وهذا أبلغ في التنفير منهم والتحذير منهم ؛ لأن دأب العدو القصد إلى أعظم ضرر يراه لعدوه .

ثم إنه ـ عز وجل ـ لم يقل : لا تتخذوا العدو ، وإنما أضاف اللفظة إليه ـ سبحانه ـ فقال (عدوي)، إعلاما ببغض الله لهم ؛ لأن العداوة منافية للمحبة ، وإعلاما بحلول عقاب الله بهم ، واستصغارا من شأنهم .

والعداوة المرادة في هذا النظم هي العداوة في الدين ، ثم إنّ المؤمنين لم يبدأو المشركين بالعداوة ، وإنما المشركون هم الذين بدأوا بعداوة المؤمنين انتصارا لشركهم ، فعدُّوا من خرجوا عن الشرك أعداء لهم ، فمعنى إضافة (عدو) إلى ياء المتكلم على تقدير: عدو ديني ، أو رسولي .

والتعبير بالمفرد ﴿ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ مع أن المراد الجمع (أعدائي وأعدائكم) بدليل جمع (أولياء) فيه إشارة إلى أن الكافرين في عداوتهم لله ولعباده المؤمنين على قلب واحد ، وهذا أبلغ في إيقاظ المؤمنين بأن يكونوا هم أولى بالتوحد ، وأن يكونوا على قلب واحد كذلك ، كما قال تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ آل عمران: ١٠٣ .

وإنما ذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير والمنع ، كأنه قيل: من كان عدوا لله فهو عدو لكم ، فلا تتخذوه وليا.

ملحظ آخر وهو أن الله ـ تعالى ـ كما قدم ذكر عداوة فرعون له ـ سبحانه ـ على عداوته لموسى فقال : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ قدم ذكر عداوة الكافرين له ـ سبحانه ـ على عداوتهم للمؤمنين فقال: ﴿ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ولم يقل العكس ؛ لأن الكفر بالله هو السبب في العداوة بين المؤمنين والكافرين ، وما كان سببا فحقه التقديم ، ومما يدل على ذلك أن الكفار لو آمنوا بالله وانتفت عداوتهم لله لأصبحوا إخوانا للمؤمنين ، وانتفت العداوة بينهما .

وترى أن الله تعالى قد بين السبب في كون الكافرين أعداء له ولعباده المؤمنين فقال : ﴿ ... وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ... ﴾ ، وفي هذا تهييج للمؤمنين بعداواتهم لمخالفتهم في الاعتقاد مع إيقاع الإيذاء منهم .

كما نبه ـ سبحانه ـ على عراقة الكافرين في عداوتهم للمؤمنين فقال: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الممتحنة: ٢ .

فهذا بيان بشدة عدائهم للمؤمنين ، وفي هذا تهييج للمؤمنين على عدائهم وعدم اتخاذهم أولياء ، وإعلام بأن يكونوا على حذر منهم ، كما أن التعبير بفعل { يكونوا } مشعر بأن عداوتهم قديمة وأنها تستمر.

وعن سر مجيء لفظ (أعداء) بصيغة الجمع يقول أستاذنا الخضري: "ألا ترى كيف وحد العدو في صدر الآية الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، ثم عدل إلى الجمع في صدر الآية الثانية ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ في إشارة كاشفة عن دخائل أنفس أهل الكفر ، الذين تراهم عدوا واحدا في معركتهم مع المؤمنين ، فإذا ما ظفروا بموقعة فرقت بينهم مطامعهم ، فصاروا أعداء ، كما هو شأنهم دائما في تعدد عداوتهم ومذاهبهم"[1] .

ومن مظاهر عداوة الكافرين للمؤمنين في هذا النظم قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ هذان مظهران من مظاهر عداوة الكافرين للمؤمنين ، وهم بمنزلة عطف التفسير لقوله : ﴿ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ المظهر الأول بسط الأيدي بالسوء ، وهو كناية عن القتل والسبي وسائر أنحاء التعذيب ، والمظهر الثاني : بسط الألسن بالسوء ، وهو كناية عن السب و الشتم ، وقد بدأ ـ سبحانه ـ بهما لكونهما أظهر في العداوة.

(١) ـ الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ صـ ٤٩ .

ويأتي مظهر آخر من مظاهر عداوة الكافرين للمؤمنين وهو قوله ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، ومعلوم أن حال العدو دائما القصد إلى أعظم ضرر يراه لعدوه ، وليس في الدنيا من ضرر أعظم من ارتداد المسلم عن دينه .

وترى في تلك المظاهر العدائية التحول من المضارع (يكونوا ، ويبسطوا) إلى الماضي ،(وودوا) ، وعلة ذلك هو إفادة أن ودادة أعدائهم كفرهم أمر محقق وحاصل في كل حال، سواء قبل الظفر بهم أم بعده، فليس متعلقاً بالشرط ومترتباً عليه، فدل التحول إلى الماضي على تحققه في الحدوث وحصوله سابقاً للشرط والجواب، ولو جاء مضارعاً لأوهم تعلقه بالشرط ، فيكون وُدُّ أعدائهم كفرهم أمراً حاصلاً بعد الظفر بهم لا غير.

التأسي بنبي الله إبراهيم عليه السلام وبمن آمن معه في عدائهم وبغضهم للكافرين .

حثنا سبحانه على التأسي بنبيه إبراهيم عليه السلام وبمن آمن معه في عدائهم وبغضهم للكافرين بقوله:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ الممتحنة: ٤.

والعداوة والبغضاء اسمان لمعنيين من جنس الكراهية الشديدة، فهما ضدان للمحبة ، وقد ذهب ضياء الدين بن الأثير إلى أن العداوة والبغضاء

بمعنى واحد ، فلا فرق بينهما عنده[١]، أما أبو البقاء الكفوي فقد فرق بينهما بأن "العداوة أخص من البغضاء ؛ لأن كل عدو مبغض، وقد يبغض من ليس بعدو"[٢].

وقد رأى الطاهر بن عاشور أثناء بيانه للعداوة والبغضاء في قوله : ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ المائدة: ١٤ .

أن كلا الوجهين السابقين غير ظاهر، وأن الظاهر عنده أن بين معنيي العداوة والبغضاء تضاد وتباين ، فالعداوة كراهية تصدر عن صاحبها معاملة بجفاء، أو قطيعة، أو إضرار... فإن مشتقات مادة (ع د و) كلها تحوم حول التفرق ، وعدم الوئام ، وأما البغضاء فهي شدة البغض، وليس في مادة (ب غ ض) إلا معنى جنس الكراهية ...فالبغضاء شدة الكراهية غير مصحوبة بعدو، فهي مضمرة في النفس، فإذا كان كذلك لم يصح اجتماع معنيي العداوة والبغضاء في موصوف واحد في وقت واحد ، فيتعين أن يكون إغراء العداوة والبغضاء بينهم على معنى التوزيع، أي: أغرينا العداوة بين بعض منهم والبغضاء بين بعض آخر، فوقع في هذا النظم إيجاز بديع ؛ لأنه يرجع إلى الاعتماد على علم المخاطبين بعدم استقامة اجتماع

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٣/٣٤ . ت/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة . ط/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي. صـ٦٤٤ . ت/عدنان درويش ـ محمد المصري .ط/ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤١٩ هـ ـ١٩٩٨م .

المعنيين في موصوف واحد[١]، هذه الآراء والتأويلات المختلفة تدل على وقوفهم أمام هاتين اللفظتين واهتمامهم ببيان الفروق بينهما، وأرى أن أدق هذه الآراء ما ختم به ابن عاشور .

والتعبير بالفعل (بدا) فيه إشارة إلى أن العداوة بينهم أصبحت ظاهرة واضحة لا لبس فيها ولا خفاء ، وتذكيره مع أن الفاعل (العداوة والبغضاء) مؤنث هو بسبب الفصل بين الفعل والفاعل ، أو لأن العداوة والبغضاء بمعنى العدوان والبغض أو التباغض .

ولحكمة بالغة قدّمت العداوة على البغضاء ، وتلك هي أن الأُولى أهم من الثانية ، فإن الإنسان قد يبغض الكفار ولا يعاديهم ، فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة ــ وهي المتعلقة بفعل الجوارح ــ والبغضاء وهي المتعلقة بالقلب ، ذلك أن البغضاء لا تنفعه حتى تظهر آثارها وتتبين علاماتها ولا تكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة ، فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين[٢] .

ومن الملحوظ أنه لو اقتصر على قوله (أبدا) ـ وهو الزمان المستقبل من غير انتهاء إلى حد ــ لأفاد ذلك أن العداوة والبغضاء بينهما دائمة ومستمرة لا انتهاء لها ، ولكنه عبر بـ (حتى) التي تفيد الانتهاء إلى الغاية فقال (أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) : فأفاد بذلك أن الغاية من عداء المؤمنين وبغضهم للكفار من قوم إبراهيم هي أن يؤمنوا بالله وحده ، وأن

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٦ .

(٢) ـ ينظر : مجموعة التوحيد . أحمد بن تيمية ص٢٥٨ . ط/دار إحياء التراث .

العداوة والبغضاء بين المؤمنين والكافرين تنتهي بمجرد أن يؤمنوا بالله وحده ، فبإيمانهم تنقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة .

وكما تبرأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من عبدة الأصنام تبرأ من أبيه آذر لكونه عدوا لله ، حيث يقول الله ـ عز وجل ـ في شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ ... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة: ١١٤.

وهذا البيان انكشف لإبراهيم إما بإخبار من الله ، أو بموت أبيه ، وثبوت هذه العداوة تدل على الكفر ، وإنما عبر بلفظ (عدو) دون أن يقال (كافرا بالله) لثبوت وإبراز عداوته لله تعالى وعداوته لإبراهيم عليه السلام بالتبعية ، وهذه العداوة كافية في سوء حاله ، ومبينة لمدى خسرانه إذ كان يحارب دين الله ، والله غالب وآخذ من يحارب دينه وعباده أخذ عزيز مقتدر.

عدم أحقية الأعداء لدية مؤمن منتسب إليهم .

ورد لفظ (عدو) في سياق بيان حكم القتل الخطأ لمؤمن ينتمى إلى الأعداء حيث يقول سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ النساء: ٩٢ .

المراد بلفظ عدو هنا : هم الكفار المحاربون للمسلمين ، وهو مفرد في موضع الجمع ، وقد عبر بالمفرد : نظرا لتوحدهم في مواجهة الحق

وأهله ، فهم في صورة عدو واحد إلخ كما ذكرت سابقا ، والتعبير بلفظ (عدو) يشير إلى أنهم لا يستحقون الدية ؛ لأن دفع الدية إليهم يؤدى إلى تقويتهم على المسلمين ، ومن غير المعقول أن ندفع لأعدائنا ما يتقوون به علينا ، وترى أن في التصريح بالوصف وهو قوله: (وهو مؤمن) احتراس ودفع للتوهم عند الإخبار عنه بقوله: (من قوم عدو لكم) أن يظن أحد أنه أيضا عدو لنا في الدين.

مخافة شماتة الأعداء .

هذا هارون عليه السلام ينهى أخاه موسى عليه السلام عن إهانته وضربه وعن استمراره في أخذه بلحيته ورأسه يجره إليه لئلا يشمت به الأعداء فيقول : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٠ .

المراد من الأعداء هنا : القوم المذكورون في أول الآية ، وهم (عبدة العجل من بني إسرائيل) إلا أنه أقيم الظاهر مقام ضميرهم للتصريح والتأكيد على كونهم أعداء له ، وأنه ليس منهم في شيء ، إذ عادوه بسبب إنكاره دعوتهم إلى عبادة العجل وكادوا أن يقتلوه ، فصاروا بسبب هذا أعداء له ، يقول الشيخ الشعراوي : "وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم"(١)، و (أل) التعريفية في لفظ (الأعداء) للعهد الذكري ، حيث سبق لمصحوبها ذكر في

(١) ينظر : تفسير الشعراوي ٤٣٦٥/٧ .

أول الآية ، أو العهد الحضوري بدليل مخاطبة موسى إياهم بقوله﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ وجره برأس أخيه هارون بحضرتهم ، ويجوز أن يكون المراد من الأعداء : أعداء الدين والدنيا ، وعليه تكون أل للاستغراق العرفي أي كل عدو .

والشماتة : هي : أن يُسرّ المرء بما يصيب عدوه من المصائب ، يقال شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به[1] والمعنى هنا : لا تسر الأعداء بما تنال مني من مكروه ، وإنما بدأ هارون أولا بسؤال أخيه موسى أن لا يشمت به الأعداء فقدمه في الذكر؛ لأن شماتة العدو أشد من كل بلية ، ولذلك قيل : والموت دون شماتة الأعداء ، وقد سئل أيوب ـ عليه السلام ـ عن أي شيء كان أشد عليك في بلائك ؛ فقال : شماتة الأعداء ، فشماتة الأعداء شيء ليس سهلا ؛ لأن العدو إذا تشمت بك شفى غليله منك، وجعلك تشعر بالقهر والانكسار ، يقول ابن أبي عيينة المهلبي : **كل المصائب قد تمر على الفتى .... فتهون غير شماتة الأعداء**[2] ؛ لأجل هذا قدم النهي عن شماتة الأعداء في الذكر ، وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يستعيذ من شماتة الأعداء فيقول : اللهم أني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء[3] .

---

(١) ينظر : لسان العرب لابن منظور. مادة (شمت) ٥١/٢ . ط/ دار صادر – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ .

(٢) ـ الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٢٦/٢ . ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط/ دار الفكر العربي – القاهرة . الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

(٣)ـ صحيح البخاري كتاب الدعوات . باب التعوذ من جهد البلاء . حديث رقم (٦٣٤٧) ٧٥/٨ .

البشارة بإسلام بعض أعداء المؤمنين .

يبشر الله عز وجل أصحاب النبي ـ ﷺ ـ بإسلام بعض أقربائهم من الكافرين الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين فيقول : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الممتحنة: ٧

والسياق هنا يشير إلى أن الله ـ عز وجل ـ لما نهى عن موالاة أعدائه والتودد إليهم بقوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ عادى المؤمنون أقرباءهم من الكافرين فأنزل الله هذه الآية تسلية لهم على ما نُهوا عنه من مواصلة أقربائهم المعبر عنهم بقوله (منهم) ، فهذا الضمير عائد إلى المشركين المعبر عنهم بالعدو في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، والمعنى: أن موالاة الكفار لا تنفع وهو ـ سبحانه ـ قادر على أن يوفقهم للإيمان وتحصل المودة بينكم وبينهم.

وألحظ أن الله ـــ تعالى ـــ عبر بالموصول وصلته المشتمل على الفعل الماضي (الذين عاديتم منهم) دون أن يقال : وبين أعدائكم ، مع كونه أوجز ، والذي يبدو لي أن الله عبر بالفعل الماضي (عادى) لإفادة تحقق حدوث معاداة المؤمنين للكفار وحصولها ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد ، وفيه دلالة على القطع والتأكيد بوقوع الحدث وحصوله ، وهذا يعني أن المؤمنين قد امتثلوا للنهي عن اتخاذ الأعداء أولياء والتودد إليهم .

وتأتي هذه الجملة التذييلية ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ لتؤكد على أن الله قادر على نقل القلوب من العداوة إلى المودة ، فيصبح المشركون مؤمنين ، والأعداء أصدقاء ، فتحصل المودة بينكم وبينهم.

وقد أشرت في صدر الآية أنها بشارة بإسلام بعض الكافرين الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين ؛لأن (عسى) المعبر بها في الآية هي فعل مقاربة يدل على الرجاء ، وإذا صدر من الله ـ تعالى ـ كان متحقق الوقوع ، لصدوره من أكرم الأكرمين ، وقد تحققت البشارة حين أسلم بعض المشركين عام الفتح فحصلت المودة بينهم وبين المسلمين ، وزالت العداوة.

تأييد الله للمؤمنين بنصرهم على أعدائهم .

هذا موضع يبين الله فيه أنه مؤيد الذين آمنوا على عدوهم فيقول : ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ الصف: ١٤ ، فالمراد بالعدو في قوله:﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ هم الذين كفروا بعيسى عليه السلام كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ ﴾ المائدة: ٧٢ ، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ ﴾ المائدة: ٧٣ ، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ﴾ التوبة: ٣٠ .

وفي هذا الخبر تلويح بوعد الله للمؤمنين من أمة محمد ـ ﷺ ـ في كل زمان ومكان بأن الله مؤيدهم على عدوهم .

الغرض من إيثار التعبير بلفظ (عدو).

والغرض من إيثار التعبير بلفظ (عدو) في هذا الخبر ، دون أن يقال : فأيدنا الذين آمنوا على الذين كفروا ، أو فأيدنا المؤمنين على الكافرين ، هو: إعلام أمة محمد ـ ﷺ ـ بأن الكافرين خصوم للمؤمنين في كل زمان

ومكان، خصوم كالأسود الزائرة تجول ملتمسة من تفترسه ، وهم دائما كارهون للمؤمنين ، يكيدون لهم ، سهامهم دائما ملتهبة ومصوبة نحو المؤمنين ، فهذا شأن العدو دائما ، وفي هذا تنبيه إلى أخذ الحذر منهم ، يقول صاحب روح البيان " قوله (على عدوهم) أي : على الذين كفروا ، وهو الظاهر، فإيراد العدو إعلام منه أن الكافرين عدو للمؤمنين"[١] .

وقد أجاز السمين الحلبي أن يكون التعبير من قبيل إيقاع المظهر موقع المضمر للغرض ذاته ، إذ الأصل : فأيدناهم عليهم[٢] ، **وأرى أن الغرض الأساس هو إزالة اللبس حيث يتوهم عود الضمير في (فأيدناهم) إلى أقرب مذكور ، وهي الطائفة الكافرة فيحصل اللبس ، أو قد يختلط على السامع المعنى : أي الطائفتين انتصرت على الأخرى ، وبعد هذا يأتي الهدف الآخر من وضع المظهر موضع المضمر ، والذي تمت الإشارة إليه آنفا .**

وقد ورد التعبير بصيغة (عدوهم) دون (على من عادوهم) لإفادة ثبات عدائهم للمؤمنين واستمراريته ، وهذا شأن العداوة الإيمانية تظل ثابتة مستمرة لا تنقطع ولا تزول ، ومن الملحوظ أيضا خروج التعبير بلفظ (عدو) عن مقتضى الظاهر بالعدول عن الجمع إلى الإفراد، وذلك كثير في النظم القرآني، وقد سبق أن أشرت إلى سر هذا العدول .

---

(١) روح البيان ٥١١/٩ .

(٢) ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٣٢٤/١٠ . ت/ الدكتور أحمد محمد الخراط . ط/ دار القلم، دمشق .

العداوة بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون : .

صرح القرآن الكريم بذلك في موضعين من النظم الحكيم .

الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ طه: ٣٩.

الموضع الثاني قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ القصص: ٨ .

ترى في الموضع الأول أن العدو الذي لله ولموسى هو فرعون أطغى هذه الأمة وأكفرها بالله ، ومجيئه بطريق التنكير للتحقير ، فمن يكون هو حتى يبارز الله ـ عز وجل ـ ونبيه .

ثم إن التعبير بقوله (عدو لي) ظاهر وليس فيه إشكال؛ لأن فرعون وقت الأخذ متصف بالعداوة لله ـ تعالى ، أما التعبير بقوله (عدو له) ففيه إشكال إذ إن فرعون لم يكن عدوا له في ذلك الوقت ، والجواب أن هذا من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته اعتبار ما سيكون أي يؤول أمره إلى ما آل إليه من العداوة .

والتعبير بقوله (عدو لي) كناية عن موصوف ، وهو فرعون ، والغرض من إحلال الصفة المشبهة (عدو) محل اسم فرعون هو: ثبوت عداوته لله تعالى وعداوته لرسوله عليه السلام ، وثبوت إحدى العداوتين كاف في سوء حاله ، وبيان مدى خسرانه ، وفي هذا إشعار بأن عداوة فرعون لموسى لا تؤثر فيه ولا تضره ، وطمأنينة لفؤاد أم موسى بأن تدعه

ليأخذه العدو ، فهو سبحانه قادر على تربية الولي في حجر العدو ووقايته من شره بإلقاء محبة منه عليه .

وقد كان من الجائز أن يقال : يأخذه عدو لي وله ، ولكنه سبحانه كرر لفظ (عدو) تمكينا لهذا الوصف الذميم في الذهن ، والذي يترتب عليه العقوبة في الدارين ، وقد يكون ـ كما ذهب الألوسي ـ للمبالغة في الدلالة على أن عداوته كثيرة لا واحدة [١] .

وقد يتوهم متوهم أن التصريح بالعداوة بين فرعون وموسى في قوله تعالى :﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ﴾ هو تكرار لقوله تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، والمتأمل في الآيتين لا يلمس هذا التكرار؛ لأن العداوة في آية طه من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى، أما العداوة في آية القصص فمن جانب موسى لفرعون، وهكذا تكون العداوة متبادلة، وهذا يضمن شراستها واستمرارها، وهذا مُرَاد في هذه القصة ، أما إن كانت العداوة من جانب واحد، فلربما تسامح غير العدو وخجل العدو فتكون المصالحة ، والعداوة بين موسى وفرعون ينبغي أن تكونَ شرسة؛ لأنها عداوة في الدين والتوحيد، وفي تقديم الجار والمجرور (لهم) على خبر يكون وهو قوله (عدوا وحزنا) إفادة الاختصاص أي : عدوا وحزنا لهم على وجه الخصوص .

وفي الآية ملحظ آخر هو أن امرأة فرعون لما رأت موسى عليه السلام بعد التقاطه وصفته بأنه قرة عين لها ولفرعون ، ونهت عن قتله راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولدا ، هكذا بين الله حالهما وقت التقاطه ، لكن لما كان

---

(١) ينظر روح المعاني ٥٠٢/٨ .

عاقبة أمر فرعون وآله ، ولما كان المآل أنه سيصير عدوا لهما عبر عن الحال بالعاقبة والمآل على طريقة المجاز المرسل لعلاقة اعتبار ما يؤول إليه أمره أو لعلاقة الضدية ، والتعبير عن الحال بالمآل جار على سنن العرب فى كلامهم، قال سابق البربري:

أَمْوَالُنا لِذَوِي المِيرَاثِ نَجْمَعُها ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيها(١)

وقال أيضا:ـ

وللْمَوْتِ تَغْذُو الوَالِدَاتُ سِخَالَهَا ... كَمَا لِخَرابِ الدَّهْرِ تُبْنَى المَساكِنُ(٢).

فعاقبة البناء الخراب وإن كان فى الحال مفروحا به ، وعاقبة تغذية السخال الذبح وإن كانت الآن تغذّى لتسمن.

<u>والغرض من المجاز في الآية</u> :هو إثبات أن فرعون ليس إلها، فلو كان فرعون إلها لعرف أن هذا الوليد الذي سيربيه سيكون عدوا له وحزنا ، ففيه تكذيب لفرعون وإبطال ادعائه الألوهية ؛ لأن الإله لا يكون جاهلا بعواقب الأمور ، وفيه أيضا بيان أن فرعون وأتباعه كانوا قوما مغفلين لا فطنة لهم ؛ لأنهم أبقوا موسى ـ عليه السلام ـ وهم عالمون به (أنه ذكر)، قادرون على قتله؛ فضلَّ عنهم حرصُهم، والتقطوه، ورفقوا به ، وعطفوا عليه ؛ ليكون لهم عدوا وحزنا ، وهم ما أرادوا ذلك ؛ وإنما أرادوا

(١) الحماسة المغربية لأبي العباس الجرّاوي ١٤٣١/٢ . ت/ محمد رضوان الداية . ط/ دار الفكر المعاصر – بيروت . الطبعة الأولى ١٩٩١م .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٢١/١ . ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

النفع ؛ فذلك هو التهكم بهم والتعريض بغبائهم ؛ لجهلهم بالعواقب من قدرة الله ومراده.

وفي هذا المجاز إيجاز حذف واضح إذ الأصل أن يقال : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم قرة عين ينفعهم أو يتخذونه ولدا ، فآلت عاقبته إلى أن كان لهم عدوا وحزنا .

بشارة موسى عليه السلام بني إسرائيل بإهلاك أعدائهم.

في مقام بشارة موسى عليه السلام بني إسرائيل بإهلاك أعدائهم واستخلافهم من بعد فرعون أرض مصر جاء قوله :﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٢٩ .

والغرض من قوله :﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ هو "التصريح بما رمز إليه من البشارة قبل[١] ، وكشف عنه ، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر"[٢] ، وفي رجاء موسى ربه بإهلاك أعداء بني إسرائيل تسلية لهم ، وحث لهم على الصبر ، والتمسك بطاعة الله ، وزجر لهم عن الكفر، حتى ينعم الله عليهم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض.

---

(١) في قوله : ...(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) الأعراف : ١٢٨ .

(٢) الكشاف ١٣٥/٢ .

والمراد بالعدو، فرعون وحزبه ، وقد جاء اللفظ مفردا مرادا به الجمع (أعداء) ، وعبر بالمفرد لكونهم يدا واحدة في اجتماعهم على إيذاء بني إسرائيل باستعبادهم وتكليفهم بالأعمال الشاقة ، وبقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، ويجوز أن يكون لفظ (عدو) مفردا على الأصل والمراد به فرعون فقط ، لأن ما حدث لهم من أنواع الظلم وصنوف الاضطهاد كان بأمر منه ، والمعنى الأول أولى لكونه يتلاءم مع ما ذكر قبل وبعد من الإشارة إلى فرعون وآله .

ثم إن موسى عليه السلام لم يقل : عسى ربكم أن يهلك فرعون وقومه ، وإنما عبر بوصفهم بأنهم عدو بني إسرائيل ملتفتا إلى الإيذاء الذي وقع عليهم من قبل ومن بعد ، وأنه لا ينشأ إلا من عدو ، ولذلك كان من تمام المناسبة الإتيان بلفظ عدو ، وفي التعبير بالوصف أيضا إفادة العموم أي كل من ينصب لهم العداوة ويبتغي بهم السوء ، فلم يسم القرآن خصوص فرعون وقومه، بل العموم أنسب بالامتنان وأحسن في البشارة خصوصا إذا كانوا موعودين بالخروج من مصر.

ويلحظ أن موسى عليه السلام عبر بصيغة الرجاء (عسى) ولم يجزم بوقوع إهلاك العدو واستخلاف الأرض من بعده ؛ لأنه لا يملكه ، وقد قال الله لمحمد ـ ﷺ ـ (ليس لك من الأمر شيء)، ولذلك قال موسى عليه السلام (عسى) بكل أدب ، وفي هذا الأدب العظيم من موسى مع ربه ـ عز وجل ـ : تعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامي مع خالقهم ، "وقيل: إن موسى ساق لهم ما وعدهم به ـ من إهلاك العدو واستخلاف الأرض من بعده ـ في صيغة الرجاء لئلا يكذبوه، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه، واستعظامهم لملكه وقوته ، فكأنهم يرون

أن ما قاله لهم موسى مستبعد الحصول ؛ لذا ساقه لهم في صورة الرجاء"[(١)]، وقد ناسب استعظام بني إسرائيل لملك فرعون وقوته وجبروت قومه التعبير بالإهلاك الذي يفيد استئصالهم مهما كانت قوتهم ومهما عظم ملكهم ، يضاف إلى ذلك أن لفظ (يهلك) جامع للمصائب التي نزلت بهم ، فقد أخذهم الله بالسنين وأرسل عليهم الطوفان والجراد ..إلى غير ذلك من مهلكات الأعداء .

وفي قوله: ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ إشارة إلى ما يجب عليهم فعله نحو المنعم بنعمة السلب ، وهي إهلاك العدو ، ونعمة الإيجاب ، وهي الاستخلاف في الأرض ، هل يستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين بالله، أو يكفرون بهذه النعمة ؟ ، هذا هو الاختبار ، ولكنهم رسبوا فيه بعبادتهم العجل ، وبتقاعسهم عن قتال أعدائهم ! .

ومن الملحوظ أن الله ـ تعالى ـ فصل ما أجمله موسى ـ عليه السلام ـ بإهلاك العدو واستخلافهم الأرض ، وقد جاء تفصيل إهلاك العدو على سبيل التدرج والترقي من الأدنى للأعلى فبدأ بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الأعراف: ١٣٠، ثم ترقى فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ الأعراف: ١٣٣ حتى وصل للنهاية بقوله : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٣٦، ثم فصل استخلافهم الأرض بقوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ

(١) القصة في القرآن الكريم . د/ محمد سيد طنطاوي جـ١/ صـ٤٠٥ .ط/نهضة مصر الطبعة الأولى ١٩٩٦.

ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ ﴾

الأعراف: ١٣٧ .

تذكير بني إسرائيل بنعمة النجاة من العدو .

في مقام تذكير بني إسرائيل بالنعم ورد لفظ (عدو) في قوله : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾

طه: ٨٠ .

والمراد به فرعون ، وبناء عليه فالتعبير بالمفرد على أصله، وقد يكون المراد بعدوهم هنا فرعون وجنوده ، وبناء عليه يكون التعبير بالمفرد (عدو) من قبيل وضع المفرد موضع الجمع ، وقد سبقت الإشارة إليه في أكثر من موضع .

والناظر إلى المغزى من التعبير بالصفة (عدو) دون التعبير بالاسم فرعون يرى أن المغزى هو تذكير بني إسرائيل بمظاهر العداوة من ذلك الظالم الغاشم من التحكم فيهم وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم وإذلالهم وإتعابهم بالأعمال الشاقة ، ثم إن هذه الصفة تشير إلى سمة لموصوف ثابتة العلوق به كأنها لقب ، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة ، ويعد هذا التعبير من قبيل الكناية عن موصوف ، وإيثار تعريف لفظ (عدو) بالإضافة إلى ضمير بني إسرائيل لبيان تحديد وتعيين وتخصيص من توجه العداوة إليهم ، وأنهم هم المستهدفون من قبل فرعون وجنوده ، وهذا أبلغ في تذكيرهم بالنعمة .

والتعبير بالإنجاء من هذا العدو في قوله: ﴿ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾إشارة إلى إزالة ذلك الضرر الذي لحق بهم ، ومن الملحوظ أن الله ـ تعالى ـ بدأ

بذكر النجاة من عدوهم فقال: أنجيناكم من عدوكم بإغراقه في البحر وتلك نعمة ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية فقال: ﴿ :وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ إذ أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم وهذه نعمة أيضا ، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ ، وهذه نعمة أيضا .

وإنما قدم نعمة النجاة من العدو على ما تلاه لأن إزالة المضرة مقدمة على إيصال المنفعة لكونها أعظم في النعمة ، فهذا ترتيب حسن معقول ؛ لأن درء المفاسد وإزالة الموانع مقدم على جلب المصالح واستدرار المنافع(١) .

وأتساءل لمن الخطاب في التذكير بنعمة الإنجاء من الأعداء وغيرها من النعم المنصوص عليها في الآية ؟ ، الظاهر أن الخطاب لمن نجا مع موسى بعد إغراق فرعون وجنوده على تقدير: قلنا لهم بعد إنجائهم يا بني إسرائيل ، ويجوز أن يكون خطابا لليهود المعاصرين لنبينا ـ ﷺ ـ ؛ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء .

عداوة شياطين الإنس والجن للأنبياء على وجه العموم .

نص الله ـ عز وجل ـ في موضعين على أن لكل نبي من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن ، وأن رسول الله ليس بدعا منهم فقال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٨٢/٢٢ ، ٨٣ ، والبحر المحيط ٣٦٣/٧ ، ونظم الدرر ٣٤/٥ .

الأنعـــام: ١١٢ ، وقـــال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ الفرقان: ٣١

وقد صيغ هذا المعنى في أسلوب تشبيهي : حيث شبه حال النبي ـ ﷺ ـ في عداوة شياطين الإنس والجن له ، وإيذائهم له بحال الأنبياء السابقين في عداوة شياطين الإنس والجن لهم ، وإيذائهم لهم وتحملهم المشاق وثباتهم والتزامهم الصبر ، والمعنى : جعلنا لك يا محمد أعداء من شياطين الجن والإنس يحاربونك كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء منهم يحاربونهم ، فلا يحزنك ذلك ، وقد جاء لفظ (عدوا) في الآيتين نكرة تمهيدا لبيان العدو بأنه شياطين الإنس والجن في الأولى ، وأنه من المجرمين في الثانية .

والغرض من ذكر عداء شياطين الإنس والجن لمن تقدم من الأنبياء هو تسلية النبي ــ ﷺ ــ عما كان يشاهده من عداوة قريش ، وحمل له على الاقتداء بمن تقدمه من الأنبياء ، فقد جعل الله لكل نبي تقدمك أعداء فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، فلست يا محمد منفردا بعداوة من عاصرك ، بل هذه سنة من قبلك من الأنبياء ، فاصبر كما صبروا[1] ، وتكراره في سورة الفرقان لتأكيد ذلك المعنى .

ثم إن عداء شياطين الإنس والجن ليس لهوان الأنبياء على الله ، وإنما لحكم عظيمة منها عظم ثواب الرسل بصبرهم وثباتهم ، وليتميز الحق من الباطل.

ومما هو معلوم في اللغة العربية أن الفعل (جعل) يتعدى لمفعولين ، أما المفعول الأول فهو قوله (عدوا) ، وأما المفعول الثاني فهو قوله (لكل

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ١٧٥/٣ .

نبي) ،"وتقديمه على المفعول الأول للاهتمام به ؛ لأنه الغرض المقصود من السياق، إذ المقصود الإعلام بأن هذه سنة الله في أنبيائه كلهم، فيحصل بذلك التأسي والقدوة والتسلية ؛ ولأن في تقديمه تنبيها ــ من أول السمع ــ على أنه خبر، وأنه ليس متعلقا بقوله (عدوا) كيلا يخال السامع أن قوله: (شياطين الإنس) مفعول ؛ لأنه يحول الكلام إلى قصد الإخبار عن أحوال الشياطين، أو عن تعيين العدو للأنبياء من هو،وذلك ينافي بلاغة الكلام"(١).

وأما قوله : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ ﴾ فهو بدل من قوله (عَدُوًّا) ،أو بيانا له ، ويجوز أن يكون (شياطين..) مفعول أول ، و(عدوا) مفعول ثاني قدم على الأول مسارعة إلى بيان العداوة ، والمعنى : جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لكل نبي بعثه الله تعالى .

ولفظ (عدوا) في الآيتين مفرد مراد به الجمع (أعداء) كما ذكره الزجاج وغيره ،"وعبر عن الجمع بالمفرد إشارة إلى أنهم يد واحدة في العداوة"(٢) ، وقريب من ذلك ما ذكره الشيخ الشعراوي من أن "العداوة نوعان، فإذا تعدد العدو، وجمعته مصلحة واحدة في معاداة المعادي يكونون وحدة في العداوة ، فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد في العداوة ، لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه ، فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدوًا برأسه ، وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٨ .

(٢) نظم الدرر ٦٩٧/٢ .

(٣) تفسير الشعراوي ٣٨٧٨/٧ .

وعداوة شياطين الجن للأنبياء ظاهرة ؛ لأن الأنبياء جاءوا للتحذير من وساوس الشياطين، وقد قال الله ــ تعالى ــ لآدم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ طه: ١١٧ ، وكذا عداوة شياطين الإنس ظاهرة للأنبياء ، والتاريخ شاهد على هذا ، وقد استعير اسم الشيطان الموضوع للجن المتخفي للشرير المضلل من بني آدم لكونه يفعل فعل الشياطين من مكر وخديعة .

وكان من سنن الله في الكون أن ينتصر الحق على الباطل ، وأن ينتصر أولياء الله على أعدائه وأعداء رسله بعون الله وبالصبر والمجاهدة ، ولذلك قال في آية الفرقان : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ، فهذا وعد كريم له ـ ﷺ ـ بالهداية إلى معرفة الحق ، وبالنصر على أعداء الله .

وألحظ أن الله ـ تعالى ـ صرح في آية الأنعام بأن أعداء الأنبياء هم شياطين الإنس والجن ، فدل ذلك على أن المراد بالمجرمين في آية الفرقان هم شياطين الإنس والجن ، وإنما سمى الله شياطين الإنس والجن بـ (المجرمين) المشتقة من مادة (جرم)التي تعني قطع الشيء وفصله عن أصله[1] للمبالغة في ذمهم بالوصف القبيح الذي يفيد انفصالهم عن السياق المجتمعي الطبيعي ، وانحرافهم عن الحق وانفصالهم عنه بمعاداتهم لأنبياء الله ولعباده المؤمنين ، ومن ثم حرموا أنفسهم من السعادة والنجاة ، وانفصلوا عن السعداء والناجين من عذاب الله .

وقدم الإنس على الجن لأن من الإنس من له من المكر والغواية والشر ما يفوق فيه شيطان الجن ، وقريب من ذلك ما ذكره الدكتور المطعني

(١) ينظر : مقاييس اللغة لابن فارس المحقق: عبد السلام محمد هارون ٤٤٥/١. ط/ دار الفكر عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، ولسان العرب ٩٠/١٢ .

من أن تقديم الإنس على الجن "ليس للتشريف قطعاً ـ كما يرى ابن الصائغ ـ لأن المقام ليس مقام تشريف وهذا ظاهر ، وإنما التقديم لأن عداوة الإنس للرسل ظاهر أمرها ، وعنادهم لهم لا يحتاج إلى دليل ... فبنو إسرائيل ـ مثلاً ـ وهم من الإنس تمردوا على الرسل وقتلوهم ، ولم تقتل الجن رسولاً أو نبياً، وهذا الظهور في عداوة الإنس للرسل جعلهم أصلاء في هذا المقام جديرين بالتقديم فيه ، أما عداوة الجن للرسل فهى مساع وحيل متخفية، يدركها العقل ولا تدركها الحواس، فهى ـ بهذا الاعتبار ـ تأتي في المرحلة الثانية بعد عداوة الإنس للرسل والتمرد عليهم وقتلهم ، فالتقديم ـ إذن ـ ليس للتشريف، بل لأن المقدَّم أكبر شأنا من حيث اتصاله بالحقيقة التي سيق من أجلها الكلام"(١) .

وقد أشار ابن باديس من قبل إلى هذا السر على وجه من الإجمال فتراه يقول : "تقديم الإنس على الجن في آية الأنعام ؛ لأن معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء ، وهي من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح"(٢) .

ومن الملحوظ في آية الفرقان أن الله ــ تعالى ــ وصف أعداء الأنبياء بأنهم من المجرمين فأتى بالجار والمجرور (من المجرمين) دون أن يقال : عدوا مجرمين ، وهذا أفاد بأنهم كانوا من الفئة التي عرفها

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ٢/١١٥ ،١١٦. ط/ مكتبة وهبة .الطبعة الأولى١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٢) في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس صـ٣٨٥ . علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين.ط/ دار الكتب العلمية بيروت– لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

الناس بفئة المجرمين، فأفاد أنهم مجرمون بطريقة تشبه طريقة الاستدلال ، فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه ، وهي أبلغ من التصريح. قال صاحب «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ الشعراء: ١٦٨ قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك: فلان عالم، لأنك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم.

وقد يقال إن تعلق الجعل بـ(عدوا) مسندا إلى الله ـ تعالى ـ يفيد بأن هذه العداوة من فعل الله ، فكيف يجازيهم على ذلك ، والجواب : أن الجعل يراد به التخلية، والتخلية من الله ـ تعالى ـ بمعنى : خلاهم وشأنهم ، ووكلهم إلى اختيارهم، ليتم التكليف الذي يترتب عليه الجزاء ، فلم يمنعهم من فعل الكفر والمعاصي ؛ لذلك أسند الفعل إليه ، وهذا من مجاز الإسناد الذي يسمى عند أهل البلاغة بالمجاز العقلي.

الصورة الثانية : تعلق العداوة بالكافرين والعاصين أنفسهم وأسراره البلاغية.

النص على العداوة بين الأوس والخزرج قبل إسلامهم .

ورد تعلق العداوة بالكافرين والعاصين أنفسهم في أربعة مواضع في النظم الحكيم ، الموضع الأول نص الله فيه على العداوة بين الأوس والخزرج قبل إسلامهم فقال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٣

والغرض من ذكر لفظ (أعداء) هنا هو تذكير الأوس والخزرج وبعض القبائل الأخرى بحالهم قبل الإسلام ، إذ كان يعادي بعضهم بعضا، فيحارب بعضهم بعضا ، ويبغض بعضهم بعضا ، لا هَمّ لأحدهم إلا الفتك بالآخر ، تجد بطون القبيلة الواحدة وكذلك تجد بني العم من بطن واحد أعداء متغالبين على المواريث والسؤدد ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام وزالت العداوة ، فأصبحوا بنعمة الإسلام إخوانا متحابين متراحمين.

وفي ضمن هذا التذكير ـ أيضا ـ امتنان الله على المسلمين بإزالة العداوة بينهم وجعلهم إخوانا متحابين ، وفيه أيضا تحذير المسلمين من الرجوع إلى حالتهم الأولى من العداء والإحن والكراهية بسبب الانقسام والتفرّق ، "والظرفية في قوله: ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾معتبر فيها التعقيب من قوله: فألف بين قلوبكم إذ النعمة لم تكن عند العداوة، ولكن عند حصول التأليف عقب تلك العداوة"(١) .

ومن الملحوظ أن الله ـ عز وجل ـ لما ذكرهم بعدائهم قبل الاسلام فقال : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ لم يبين ما بلغته معاداتهم من الشدة، ولكنه بين في موضع آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمرا عظيما حتى لو أنفق ما في الأرض كله لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يفد شيئا، فقال : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ

(١) التحرير والتنوير ٣٣/٤ .

مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنفال: ٦٢ - ٦٣ (١).

وتنكير (أعداء) لبيان فظاعة العداوة بينهم ، فهي عداوة لا يعلم قدر فظاعتها إلا الله سبحانه وتعالى ، لهذا قال أعداء ولم يقل : إذ كنتم الأعداء ، ويمكن أن يحمل التنكير على التكثير والتنويع ، فهم أعداء كثيرون ومتنوعون ، فمنهم أعداء بسبب الحكم ، ومنهم أعداء بسبب الإرث ، ومنهم أعداء بسبب المال ، ومنهم أعداء بسبب القتل ، ومنهم أعداء بسبب شرب الخمر وتعاطي المخدرات ولعب الميسر وهو ما حذرنا الله تعالى منه في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ ﴾ المائدة: ٩١ ، ومنهم الأعداء بسبب الحسد ، أو الحقد ، وهي الأكثر انتشارا ، وبالذات بين الناس الذين أصبحوا يعرفون بأعداء النجاح والراغبين في تدمير النابغين المتفوقين .

الطباق بين (أعداء) و(إخوانا) .

وقد رسم التضاد بين لفظي (أعداء) و(إخوانا) صورة ذهنية توضيحية لمدى مرارة العداوة قبل الإسلام ومدى حلاوة المحبة والألفة والأخوة بعد الإسلام ، كما أشار إلى حالتين متضادتين: الأول: الفرقة مع العداء الشديد الذي ظهر في زمان الجاهلية ، والثاني: الوحدة والأخوّة التي ظهرت مع الإسلام ؛ ليذكرهم بلطف الله بهم ، وليدعوهم إلى المقارنة بين هاتين الحالتين .

(١) ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٠٥/١ .

سر التعبير بصيغة الجمع (أعداء) دون (عدو) .

وقد كثر مجيء صيغة الجمع (أعداء) في النظم القرآني كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾، ولو كان المفرد يغني عن الجمع لجاء لفظ (عدو) بصيغة المفرد في كل الآيات ، وهذا لم يحدث .

والسؤال هنا : لماذا عدلَ القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع؟

يجيب على هذا الشيخ الشعراوي موضحا أن العداوة نوعان، إذا تعدد العدو وجمعته مصلحة واحدة في معاداة المعادي يكونون وحدة في العداوة ، فهم عدو واحد لاجتماعهم واتحادهم على سبب واحد في العداوة ، لكن إذا تعدد العدو وتعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه إلخ ، فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدوًا برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة ، ففي مسألة الإيمان واليقين بالنسبة للكافرين تكون العداوة واحدة، لكن في أمور الدنيا العداوة متعددة : هذا يعاديك لكذا، وهذا يعاديك لكذا؛ كما هو الحال في هذه الآية ، لذا جاء التعبير بالجمع (أعداء)[1] .

(١) ينظر تفسير الشعراوي ٣٨٧٨/٧ .

تحقق العداوة والبغضاء بين طوائف اليهود .

نص الله عز وجل على تحقق العداوة والبغضاء بين طوائف اليهود فقال : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ المائدة: ٦٤

تحقق العداوة والبغضاء بين طوائف النصارى .

كما نص الله عز وجل على تحقق العداوة والبغضاء بين طوائف النصارى فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المائدة: ١٤ .

وقد سبق أن أشرت إلى الفرق الدلالي بين العداوة والبغضاء ، ومن الواضح أن العداوة والبغضاء بين النصارى تختلف عن العداوة والبغضاء بين اليهود بحسب اختلاف الدلالة البيانية لقوله تعالى: (فأغرينا) (وألقينا) ذلك أن الإغراء عند أهل المعاجم هو: إلصاق الشيء بالشيء[1]، فقولك : أغريت : أي ألصقت شيئا بشيء ، وهذا من الغِراء المعروف الذي يلصق به الخشب ونحوه ، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري ، وقد خالف الطاهر بن عاشور الزمخشري في تفسيره للإغراء بالإلصاق ، واصفا ذلك بأنه تطوح عن المقصود إلى رائحة الاشتقاق من الغراء، وهو الدهن الذي يلصق الخشب

(١) ينظر لسان العرب مادة (غرا) ١٢١/١٥ .

به، وقد تنوسي هذا المعنى في الاستعمال ، ورأى "أن حقيقة الإغراء: حث أحد على فعل وتحسينه إليه حتى لا يتوانى في تحصيله فاستعير الإغراء لتكوين ملازمة العداوة والبغضاء في نفوسهم، أي لزومهما لهم فيما بينهم، شبه تكوين العداوة والبغضاء مع استمرارهما فيهم بإغراء أحد أحدا بعمل يعمل تشبيه معقول بمحسوس"(١)، وأرى أن رأي الكشاف أعمق تأويلا وبه يتكشف سر التعبير بإغراء العداوة والبغضاء بين النصارى ، وبإلقاء العداوة بين اليهود .

وقد عظم من شأن العداوة والبغضاء بين طوائف النصارى بالتعبير بالإغراء وهو الإلصاق فالعداوة ملصقة بهم لا تنفك عنهم ، كالشيء الذي يلصق بآخر فيصير جزء منه لا ينفك عنه ، وزاد من عظمها بإسناد إغراء العداوة بينهم إلى الله الذي له كل الجلال والكمال ، ومن الملحوظ أن العداوة والبغضاء بين طوائف النصارى مسببة عن نسيانهم حظا عظيما مما ذكروا به من كتابهم ، وفي هذا دلالة على أن ترك حظ يسير من الشرع يكون سببا لحصول العداوة ونزع المحبة .

وقد استعير فعل الإغراء للجعل لبيان أن العداوة والبغضاء مُلصقة بين طوائف النصارى ، لا تزول ، ولا تنفك عنهم ، أما الإلقاء : فهو رميك الشيء برفق ولين من أعلى إلى أسفل، وهذا يعني أن العداوة والبغضاء بين أحزاب اليهود أقل شراسة واختلافا من العداوة والبغضاء الحاصلة بين النصارى ، وإلقاء العداوة استعارة للجعل ؛ لأن حقيقة الإلقاء : رمي شيء على الأرض كقوله: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ الشعراء: ٤٤ ، أو في الماء

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/٦ .

كقوله :﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ القصص: ٧ ، وفي الاستعارة إشارة إلى رسوخ العداوة والبغضاء بينهم وثباتها ثبات الشيء الملقى على الأرض .

ثم إن الغرض من هذا الخبر: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ هو إزاحة ما قد يتوهم من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين ، يضاف إلى ذلك أن في هذا الخبر إيماءا إلى أن الله عاقبهم في الدنيا على بغضهم المسلمين بأن ألقى الخصومة والبغضاء بين فرق اليهود وطوائفهم ، كما أن في هذا الخبر تسلية للرسول ـ ﷺ ـ أن لا يهمه أمر عداوتهم له .

والتعبير بقوله ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ﴾ يفيد استمرار العداوة والبغضاء بينهم ، وأنها ثابتة لا تنفك عنهم ، فالعداوة ليست محددة بزمن معين ، وإنما هي مستمرة ، لا تنقطع أبدا إلى يوم القيامة ، وكذا البغضاء .

النص والتأكيد على عداوة أخلاء السوء في الآخرة

وهذا موضع يبين الله ـ عز وجل ـ فيه تحول الخلة التي قامت على معصية الله في الدنيا إلى عداوة في الآخرة فيقول : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الزخرف: ٦٧ .

وتشير هذه اللفظة (عدو) إلى أن الأصحاب الذين بنيت صداقتهم على معصية الله في الدنيا ينقلبون يوم القيامة إلى خصوم ، يتلاومون ، يبغض بعضهم بعضا ، يلعن بعضهم بعضا ، يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر ، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ق: ٢٦ - ٢٨ ، وكما يقول سبحانه عن أهل الضلال جميعا: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٥ ، بل إن كل واحد منهم يقول للآخر بنفس تملؤها الحسرة والندم ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزخرف: ٣٨ ، وعلى العكس من ذلك يكون حال الأخلاء المتقين، فمودتهم باقية ؛ لأن اجتماعهم كان على الهدى، وتناصحهم كان على الخير ، وهذا ما أشعر به الاستثناء في قوله ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقد كان الغرض من استدعاء هذه اللفظة (عدو) هو التحذير من مصاحبة أهل السوء ، وتناصرهم ، وتوادهم ، وهي وإن كانت قد جاءت على صيغة الإفراد إلا أنه يحتمل أن يراد بها الجمع ، ويكون إيثار التعبير بالمفرد إشارة إلى أن عداءهم كان من أجل شيء واحد هو معصية الله ، فبعضهم في صورة عدو واحد ؛ لاجتماعهم على المعصية ، وبعضهم الآخر في صورة عدو واحد كذلك .

وقد أوثر التعبير بها بطريق التنكير فقال (عدو) للدلالة أن المحبة والمودة التي بينهم ستنقلب خصومة وبغضا لا يعلمه إلا الله ، ففيه تفظيع وتهويل من شأن العداوة .

وقد يحمل قوله ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ على الكناية عن صفة ، وهي عدم النفع وعدم المساعدة وعدم المدافعة ، كما قال الله : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى

عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ الدخان: ٤١ - ٤٢ ، فلا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صاحب عن صاحبه شيئا من عقوبة الله التي حلت بهم من الله ، ولا ينصر بعضهم بعضا ، إلا من أذن الله لهم من المؤمنين فيشفعون عن المسيئين ، وبهذا يعلم أن الله ــ عز وجل ــ لما كنى بقوله: ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ عن معنى عدم النفع زاد في إثبات ذلك المعنى وأكده بذكر دليله ، وهو أنهم سيصيرون يوم القيامة أشد الناس خصوما ، وذكر الشيء ودليله أوقع وآكد في النفس.

الصورة الثالثة : تعلق العداوة بالمسلمين أنفسهم وأسراره البلاغية .

جاء تعلق العداوة بالمسلمين أنفسهم في ثلاثة مواضع ، منها هذا الموضع الذي نص الله فيه على العداوة بين المسلمين أنفسهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة: ٩٠–٩١ .

هذه العداوة مسببة عن شرب الخمر ، فإن الشارب إذا سكر ساء خُلُقه، وآذى الناس ، فتنشأ بينه وبين من آذاه عداوة وبغضاء ، ومسببة أيضا عن لعب القمار ، فالرجل قد يقامر حتى لا يبقى له شيء ، وتنتهي به المقامرة إلى أن يقامر بولده وأهله ، فيؤدي به ذلك إلى أن من قمره وغلبه

يصير أعدى الأعداء له ، ولذا كان "فيما ينتجه الخمر والميسر من العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة أقوى دليل على تحريمهما "(١).

ومن الملحوظ أن العداوة والبغضاء هنا لم تؤبد ، فلم يأت النظم هكذا : يوقع بينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، مثلما جاء في قوله: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وقوله :﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ ، والسر في هذا هو أن العداوة والبغضاء الملصقة بطوائف النصارى ، والملقاة بين طوائف اليهود مسندة إلى الله ـ عز وجل ـ فلا يمكن أن يغيرها أحد ، فإرادته وقدرته نافذة ، (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ، ولذلك جاء التعبير بقوله :﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾، في حين لم يأت هذا التعبير في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ ؛ لأن إرادة الشيطان إيقاع العداوة بين المسلمين مسندة إلى الشيطان وإرادته غير نافذة إلا على العاصين ، فإذا ما انتهى العصاة عن شرب الخمر ولعب الميسر انفكت عنهم العداوة والبغضاء كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١ ؛ ولأجل هذا لم يذكر التعبير الدال على استمرارية العداوة والبغضاء ؛ لكونها منقطعة بانقطاعهم عن شرب الخمر ولعب القمار، ولعلى أرى في هذا تلويحا إلى أن الشيطان يريد إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين ، وصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، والله لا

(١) . البحر المحيط ٤ / ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

يحب ذلك ، فإذا تغلب عليهم الشيطان وجب عليهم أن يجتنبوا الخمر والميسر ؛ حتى تزول العداوة والبغضاء من بينهم ، ويقبلوا على طاعة ربهم.

ومن الملحوظ أن الله تعالى قد قصر ـ بـ(إنما) ـ إرادة الشيطان على إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر، وعلى صدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا غير تحقيقي ؛ لأنه مبني على المبالغة ؛ إذ الشيطان يسلك كل طريق لكي يبعد العبد عن طاعة ربه ، ولما كانت هذه الأمور ــ وهي العداوة والبغضاء ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ــ من الخطورة بمكان، فقد قصرت إرادة الشيطان عليها، وكأن ما عداها لا يُعتد به إذا ما قُورن بها [1] .

وفي مقام الوعظ والإرشاد ورد لفظ العداوة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ .

والغرض من ذكرها هو الحث والحض على نبذ العداوة بين المسلمين بالإحسان .

والمراد بالعداوة هنا : الخصومة الشديدة ، والتعبير بها يفيد أن الخصمين قد ازداد بينهما الأذى والشر، وقد صيغت بصيغة التنكير للنوعية ـ وسيأتي توضيحها بعد ـ وللتنبيه على شدة فظاعتها وخروجها عن الحد المعهود المألوف ، ومن هنا تهدف اللفظة إلى أن الإيذاء مهما عظم وترتب عليه خصومة شديدة ، فعلى المسلم الحق أن يعامل من أساء إليه

(١) . علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني .د/ بسيوني عبدالفتاح فيود .جـ٢/٤٧ . ط/ مكتبة وهبة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦ م .

بالإحسان ، وهو : أن يعفو عنه ، والأفضل من ذلك أن يعامله بالتي هي أحسن : وهو أن يحسن إليه مكان إساءته إليه ، "مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك"(١)، وجيء التعبير بـ(إذا) الفجائية التي تدل على الفورية إشارة إلى سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقا ، وأنه لا يتأخر كثيرًا .

تنكير (عداوة) .

ومن إضافات الطاهر بن عاشور البلاغية فيما يتعلق بمجيء لفظ عداوة على صيغة التنكير قوله " وعدل عن ذكر العدو معرفا بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتى تنكير عداوة للنوعية ، وهو أصل التنكير ، فيصدق بالعداوة القوية ودونها، كما أن ظرف بينك وبينه يصدق بالبين القريب والبين البعيد، أعني ملازمة العداوة أو طروها ، وهذا تركيب من أعلى طرف البلاغة لأنه يجمع أحوال العداوات فيعلم أن الإحسان ناجع في اقتلاع عداوة المحسن إليه للمحسن على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفا، وتمكنا وبعدا، ويعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قويا بقدر تمكن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها ، ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها."(٢) .

---

(١) ـ الكشاف ٤/٢٠٥ .

(٢) ـ التحرير والتنوير ٢٤/٢٩٣.

العداوة في معرض التشبيه .

وترى أن الله قد شبه انقلاب العدو إلى صديق إثر دفع إساءته بالإحسان إليه بالصديق الحميم الذي لم تسبق منه عداوة ، ووجه الشبه تحقق صفة المحبة والمودة في كل من المشبه والمشبه به ، والغرض من هذا التشبيه هو الترغيب في مقابلة السيئة بالحسنة ، وبيان لأثرها ، وقد انعقد التشبيه بأداته (كأن) الدالة على تأكيد المعنى للدلالة على أن الإحسان إلى من كان بينك وبينه عداوة له أثر عظيم في تقليل عداوته ، وانقلابها إلى مودة وحسن تعامل .

ومعلوم أن الأسلوب التشبيهي ــ في الغالب ــ لا يبلغ فيه المشبه مبلغ المشبه به في الصفة المراد إثباتها للموصوف ؛ حيث إن وجه الشبه يكون أقوى وأوضح في المشبه به منه في المشبه ، هذا المعنى هو الذي جعل ابن عطية يستشعر من التعبير بكأن التشبيهية دون تركها أن الذي كان عدوا لا يعود كلية وليا حميما، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي : وهو الحليف والناصر ، والحميم: وهو القريب والصديق[1]، وقد رأى الألوسي أن التعبير بكأن التشبيهية منظور فيه إلى الغالب من الناس[2] ، فالغالب ممن كانوا أعداء لا يبلغون ـ بزوال عداوتهم جزئيا ـ مبلغ الصديق الحميم ؛ لأن العداوة لم تزُل كلية ، والقلب لم يصفُ كلية، وقليل منهم يبلغون مبلغ الصديق الحميم ؛ لزوال العداوة كلية ، ولصفاء القلب كلية .

(١) ينظر المحرر الوجيز ١٥/٥ .

(٢) ينظر روح المعاني ٣٧٥/١٢ .

وهذا ما أشار إليه صاحب التحرير بقوله : "التشبيه في قوله: ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، تشبيه في زوال العداوة ومخالطة شوائب المحبة، فوجه الشبه هو المصافاة والمقاربة ، وهو معنى متفاوت الأحوال، أي مقول على جنسه بالتشكيك على اختلاف تأثر النفس بالإحسان وتفاوت قوة العداوة قبل الإحسان، ولا يبلغ مبلغ المشبه به ، إذ من النادر أن يصير العدو وليا حميما، فإن صاره فهو لعوارض غير داخلة تحت معنى الإسراع الذي آذنت به (إذا) الفجائية "(١).

بلاغة التعبير بـ(الذي بينك وبينه عداوة) دون(عدوك)

ويلحظ أن التعبير بقوله : (الذي بينك وبينه عداوة) أبلغ من أن يقال: (عدوك) إذ يفيد الأول أن التنازع والخصومة بين طرفين ، وأنها مستعرة ؛ لأن العداوة لا تتأجج إلا إذا قابلتها عداوة أخرى ، ولذا اختير على (عدوك) مع اختصاره ، يقول ابن عرفة "إن قلت: لم عبر بهذا ولم يقل: فإذا الذي هو عدوك؟ فالجواب: أن هذا يفيد حصول العداوة من الجانبين، وكل واحد منهما عدو لصاحبه، ولو قيل: فإذا الذي هو عدوك لأفاد أن العداوة من أحد الجانبين فقط"(٢).

الطباق بين (عداوة) و (ولي حميم)

ومن الملحوظ أيضا في هذه الآية احتوائها على نقيضين يمثل أحدهما أقصى درجة من درجات الخلاف والنفور والرفض وهي (العداوة) ويمثل

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/٢٤ ، ٢٩٤ .

(٢) تفسير ابن عرفة ٤٠٩/٣ .ت/ جلال الأسيوطي . ط/ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان . الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م .

الآخر أقصى درجة من درجات الاتفاق والقرب والقبول وهي (الولاية والحميمية) ، وكان للطباق بين لفظي (عداوة) و(ولي حميم) وقع جميل مؤثر، فقد أظهر المعنى وأكده وقواه عن طريق المقارنة بين الضدين، فالذهن عند ذكر الضد يكون مهيأ للآخر مستعدا له ، فإذا ما ورد عليه ثبت وتأكد الأثر المعنوي للطباق ، وهذا ما نبه إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله" والتطبيق أمره أبين ، وكونه معنويا أجلى وأظهر "[1] .

ومن المواضع التي صرح الله فيها بالعداوة بين المسلمين قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ التغابن: ١٤ .

<u>الغرض من ذكر هذه اللفظة (عدو لكم)</u> هو إثبات عداوة بعض الأزواج لأزواجهم، وبعض الأولاد لآبائهم ، وإيقاظ الراعي بأن يأخذ حذره من أفعال رعيته ، إذ قد يصير أحب الناس إليه (زوجه وولده) أعداء له بأن يوقعا به أذى ، وهو غافل عنهما محسن الظّن بهما، والعدو لا يكون عدوا لذاته ، وإنما يكون عدوا بفعله السيء ، وبما يضمره في النفس من خبث ، فمن الأزواج من تشغل زوجها عن طاعة الله تعالى ، وتخاصمه في شأن الايمان بالله ، وتتسبب في إلحاق الضرر به ، ومن الأولاد كذلك ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا .

وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى أن "الإخبار عن بعض الأزواج والأولاد بأنهم عدو يجوز أن يحمل على الحقيقة ، فإن بعضهم قد يضمر

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني صـ ٢٠. ت/ محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة .

عداوة لزوجه وبعضهم لأبويه من جراء المعاملة بما لا يروق عنده مع خباثة في النفس وسوء تفكير فيصير عدوا لمن حقه أن يكون له صديقا، ويكثر أن تأتي هذه العداوة من اختلاف الدين ومن الانتماء إلى الأعداء ، ويجوز أن يكون على معنى التشبيه البليغ، أي كالعدو في المعاملة بما هو من شأن معاملة الأعداء ، كما قيل في المثل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو لعدوه "[١]، وهذا من إعجاز اللفظ القرآني .

وتنكير (عدو) إشارة إلى أن المؤمن لا يعرف كيف تكون عداوة زوجه وأولاده نظرا لتعلق قلبه بهما تعلقا شديدا ، ولحبه الشديد لهما ، وقدم الأزواج على الأولاد عند بيان عداوتهم له ؛ لأن أشد الناس تأثيرا في حياة الزوج هي زوجه ، التي تعرف أسراره وطبعه[٢] .

والتعبير بـ (مِنْ) التي للتبعيض في قوله :﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾، فيه إشارة إلى أن الأزواج والأولاد ليسوا كلهم بأعداء، وإنما بعضهم بهذه الصفة ، وهذا من رحمة الله بنا ، ونظرا لتوحد موقف الأزواج والأولاد ، وشدة توافقهم في معاداتهم لراعيهم بإلهائه وصده عن طاعة الله ، فكانوا كالشيء الواحد ، صح إيقاع المفرد موقع الجمع فقال ﴿ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ دون : أعداء لكم ، ملمح آخر في هذا النظم وهو تقديم خبر إن على اسمها ، إذ الأصل أن يقال : إن عدوا لكم من أزواجكم وأولادكم ، وإنما عدل عن هذا إلى ما هو عليه للاهتمام بهذا الخبر ، ولما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٤/٢٨ .

(٢) ينظر : النداء في القرآن الكريم .د/ معن توفيق دحام . صـ٨٧ . ط/ دار الكتب العلمية .

فيه من تشويق إلى الاسم ؛ ليتمكن مضمونه في الذهن أتم تمكن لما فيه من الغرابة والأهمية.

وفي ختام هذا المبحث أُذكر بأن التعبير القرآني لم يقتصر على ذكر العداء بين الجن والإنس الذي نص عليه في المبحث الأول ، وإنما صرح بأن العداء متحقق بين المسلمين والكافرين ، وبين المسلمين أنفسهم ، وبين الكافرين والعاصين أنفسهم ، وبين بعض بني آدم وبين الله وملائكته ورسله.

وكان من الملحوظ في هذا المبحث كثرة خروج لفظ (عدو) عن مقتضى الظاهر بمجيئه مفردا في موقع الجمع (أعداء) لبيان وحدة الأعداء في مواجهة الحق وأنصاره ، وأنهم في شدة العداوة يد واحدة ، وعلى قلب رجل واحد ، كما ورد التعبير بصيغة الجمع (أعداء) على أصله في مواضع عدة لغرض يقتضيه سياق ومقام كل موضع .

كما لوحظ في هذا المبحث تعدد الأغراض البلاغية لذكر لفظ العداوة ومشتقاتها في النظم القرآني ، فمنها ثبوت عداوة اليهود للمؤمنين ، ومنها ما جاء لإزاحة ما قد يتوهم من ذكر طغيان اليهود والنصارى وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين ، ومنها ما تم انتخابه لذم المنافقين وكشف حقيقتهم بأنهم خصوم للمؤمنين ، ومنها ما جاء لغرض نسبة أسباب الكيد إلى عداوة الشيطان للإنسان ، ومنها ما جاء لتسلية النبي ـ ﷺ ـ عما كان يشاهده من عداوة قريش ، ومنها تسلية الرسول ـ ﷺ ـ أن لا يهمه أمر عداوة اليهود والنصارى له ، ومنها إعلام أمة محمد ـ ﷺ ـ بأن الكافرين خصوم للمؤمنين في كل زمان ومكان لأخذ خذرهم منهم ، ومنها ما جاء لغرض حث المؤمنين على قتال أعدائهم

الكافرين الذين يتربصون ويكيدون للمسلمين ، ومنها ثبوت عداوة فرعون لله ولموسى عليه السلام وبيان أنها كافية في سوء حاله وخسرانه ، ومنها ما جاء لغرض التحذير من مصاحبة أهل السوء وتناصرهم وتوادهم ، ومنها تذكير الأوس والخزرج بحالهم قبل الإسلام إذ كان يعادي بعضهم بعضا فيحارب بعضهم بعضا ويبغض بعضهم بعضا ، وامتنان الله عليهم بإزالة العداوة بينهم وجعلهم إخوانا متحابين ، ومنها الحث والحض على نبذ العداوة بين المسلمين بالإحسان ، ومنها إثبات بعض عداوة الأزواج لأزواجهم وبعض الأولاد لآبائهم وإيقاظ الراعي بأن يأخذ خذره من رعيته ، إلى غير ذلك من الأغراض والفنون البلاغية الحافلة بالأسرار .

المبحث الرابع

التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته المتعلقة بالإنسان والجماد، أغراضه وأسراره البلاغية .

يعد هذا المبحث من أقل المباحث التي ورد فيها مشتقات لفظ العداوة ، فقد اقتصر فيه على ذكر لفظ (عدو) في موضع واحد ، ولفظ أعداء في موضع واحد أيضا ، أما الأول فقد جاء في مقام الدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

الشعراء: ٦٩ – ٨٢ .

الغرض من ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ الأصنام ووصفها بالعدو هو التبرؤ من عبادتها ، "والتعبير عن الأصنام بضمير جمع العقلاء في قوله : (فإنهم) دون (فإنها) جري على غالب العبارات الجارية بينهم عن الأصنام ؛ لأنهم يعتقدونها مدركة" (١) .

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٤٠ .

وصف الأصنام ـ وهي جمادات ـ بأنها أعداء.

كيف تكون الأصنام أعداء لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهي جمادات ، والعداوة لا توجد إلا من حي عاقل؟ .

الجواب أن الكلام على حذف كاف التشبيه ، إذ الأصل : إنهم كالعدو لي في أني أبغضهم وأضرهم ، أو أتضرر من جهتهم ، فإطلاق العدو عليهم من قبيل التشبيه البليغ .

وقيل: في الكلام حذف ، والتقدير: فإنهم عدوّ لي لو عبدتهم يوم القيامة ، فيكون تعريضا بما سيحدث لهم يوم القيامة ؛ حيث إن الله يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ للعابدين والبراءة منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ مريم: ٨١ - ٨٢ ، فعلى هذا الوجه وهو : أن الأوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة أطلق إبراهيم عليه السلام لفظ (عدو) عليهم .

لماذا قال (فإنهم عدو لي) بالإضافة إلى نفسه ولم يقل : فإنهم عدو لكم ؟.

وإنما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه (فإنهم عدو لي) بالإضافة إلى نفسه ولم يقل : فإنهم عدو لكم؛ليريهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه ؛ ليكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله، وأبعث إلى الاستماع لخطابه ، فهذا أنفع في النصح من قوله : فإنهم عدو لكم ، إذ لو قال ذلك لم يفد هذه الفائدة .

وقد وضح هذا من قبل الإمام الزمخشري حيث يقول: "وإنما قال ﴿ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى : أني فكرت في أمرى فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا وبني عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون ادعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال: فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للنصوح ما لا يبلغه التصريح ؛ لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل ، ومنه ما يحكى عن الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رجلا واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى أدب"(١).

لماذا جاء التعبير بـ (فإنهم عدو لي) دون : فإني عدو لهم؟

بين ذلك الشيخ عبد الكريم الخطيب فقال : "وفي قول إبراهيم: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ دون أن يقول: (فإني عدوّ لهم) ـ حيث جعل العداوة منهم هم إليه، ولم يجعلها منه هو إليهم، كما يقضى بذلك ظاهر الأمر ـ فى هذا إشارة إلى أمرين ، هما : ـ

أولا: أنه لما كان الله سبحانه وتعالى في هذه المعبودات التي ذكرها إبراهيم، فقد حسن أن يجعل إبراهيم العداوة صادرة من تلك المعبودات، إلى من تعاديه.. ؛ لأن المعبود لا العابد هو الذي يقام لعداوته أو رضاه وزن ، ويكون لعداوته أو رضاه أثر ، أما العابد فلا وزن ولا أثر لعداوته أو رضاه فى من يعبده.. ، هكذا يجب أن يكون الحساب والتقدير..

(١) الكشاف ٣/٣٢٣ ، ٣٢٤ .

وثانيا: أنه لما كان الوجه البارز من هذه المعبودات هو هذه الأصنام الصمّاء الخرساء ، فقد حسن أيضا ألا يكون من عاقل أن يعاديها ؛ لأنها لم يكن لها أن تفعل شيئا تعادى أو تحب من أجله.. ، وأنه إذا كان فيها من يفعل، وهو الله سبحانه وتعالى ، فإن عداوته لمن يعادى أو رضاه عمن يرضى عنه ، هو من أمره وحده ، إذ المعتبر هنا، هو عداوته لمن يعادى ، أو رضاه عمن يرضى ، لا عداوة من يعاديه، ورضا من يرضى عنه!."[(١)] .

سر مجيء (عدو) مفردا في معنى الجمع .

وقد تعددت أقوال العلماء في إفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع ، فمنهم من رأى أن لفظ عدو شبيه بالمصدر يطلق على الواحد والجمع ، ومنهم من رأى أن الكلام على تقدير : فإن كل معبود لكم عدو لي إلا رب العالمين ، ومنهم من رأى أن الإفراد لاتحاد الكل في معنى العداوة ، وهذا الرأي الأخير اختاره الشيخ الشعراوي وفصله بقوله : " وكلمة عدو جاءت مفردة مع أنها مسبوقة بضمير جمع وتعود على جمع (فَإِنَّهُمْ) ، ومع ذلك لم يقل: أعداء لي ، وإنما عبر بالمفرد : لأن السبب في عداوة هؤلاء الأعداء واحد ، وهو الاختلاف في الدين ، فكأنهم صورة واحدة ويد واحدة على المؤمنين ، أما إن تعددت أسباب عداوة الأعداء فكان منه دينية ودنيوية فإن التعبير القرآن يأتي بصيغة الجمع (أعداء) ، كما في قوله تعالى:﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ آل عمران: ١٠٣ ، فقد جاء لفظ : (أَعْدَاءً) جمعا؛ لأنها تعود إلى عداوة الدنيا، وهي متعددة الأسباب ، ولتعدد أسباب العداوة صار كل واحد منهم عدوًا برأسه ، وجمع على أعداء .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣٧/١٠ ، ١٣٨ .

وكما أفرد لفظ (عدو) في معنى الجمع أفرد اللفظ المضاد له ، وهو لفظ (صديق) في قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ النور: ٦١ ، تلحظ في هذه الآية أن كلمة (صديق) هي الكلمة الوحيدة التي وردتْ بصيغة المفرد ، فلم يقل: أصدقائكم ، كما قال : بيوتكم ، وآبائكم ، وأمهاتكم ؛ ذلك لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة فالواجب أن يكونوا على قلب رجل واحد، وإلا ما كانوا أصدقاء ؛ ولأن صداقة المؤمنين ينبغي ألا تكون إلا لمعنى واحد، هو الحب لله ، وفي الله ، لا ينبغي أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا ، فإذا كان أصدقاؤك يحبونك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد ؛ لأن الصداقة الحقة هي ما كانت لله غير متعددة الأغراض، فهي إذن لا تتعدد(١).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع ، كأنه قال: فإنهم عدو لي لكن رب العالمين ليس بعدوّي ، وهذا على معنى أن الضمير في (فإنهم) راجع إلى الأصنام فقط ، وذهب بعضهم إلى أنه استثناء متصل ؛ حيث إن بعضا من قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام مع الله ، ويجعلونها شركاء لله ، كما جاء ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ، فقال إبراهيم : كل من تعبدون أعدائي إلا رب

(١) ينظر : تفسير الشعراوي ١٠٥٩١/١٧ .

العالمين ، وقد علم أنهم يشكون في هذا الخبر ، فأكده بحرف (إنّ) مراعاة لذلك .

عداء الأصنام لعابديها .

ستعادي الأصنام عابديها ، وتكون عليهم ضدا ، وتتبرأ منهم ، حيث ينطقهم الله بقدرته فيخاطبونهم بكل ما يخاطب به العدو عدوه [١] يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الأحقاف: ٦ .

بداية أشير إلى أن الغرض من ذكر (أعداء) هنا هو: ـ

أولا: بيان أن هذه الأصنام ستخذلهم وستضرهم ولا تنفعهم يوم القيامة، إذ بإنطاق الله لهم تكذب عابديها ، وتكون سببا في هلاكهم ، فحالهم كحال الأعداء دائما في إيقاع الضرر بأعدائهم ، وفي هذا ما يعيب عليهم اتخاذهم شركاء لله .

ثانيا : بيان مدى شناعة تلك الجريمة التى ألصقها المشركون بتلك المعبودات ؛ حيث افتروا عليها بتأليهها ، وعبادتها ، واتخاذها شركاء لله ، الأمر الذي جعل هذه المعبودات تقف منهم موقف الأعداء والخصوم ، وقد أفادت صيغة الجمع مع التنكير كثرة المعبودين من دون الله المتبرئين من عبادة المشركين لهم .

---

(١) ودليل ذلك قوله تعالى : (ويوم القيامة يكفرون بشرككم)فاطر: ١٤، وقال: (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون) الفرقان: ١٧– ١٩ .

وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى جواز أن يكون قوله: ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ جاريا على التشبيه البليغ لمشابهتها للأعداء والمنكرين للعبادة في دلالتها على ما يفضي إلى شقائهم وكذبهم[١] ، وهذا أبلغ من قول الألوسي بجواز عدها من قبيل المجاز المرسل[٢].

وقد لحظ الدكتور أبو موسى : أن تشابه الجملتين (وكانوا لهم أعداء، وكانوا بعبادتهم كافرين) في البناء، بدخول كلمة (كان) عليها أشارت إلى أن عداوتهم لهم عداوة عريقة ، ساكنة في اللحم والدم ، وأن كفرهم بعبادتهم هو الآخر كفر عريق ساكن في اللحم والدم ، وهذا كله توكيد لشناعة الأضل الذي هم فيه ، كما لاحظ أن تقديم الجار والمجرور (لهم) ، و(بعبادتهم) في الجملتين على متعلقه (أعداء ، كافرين) لأن الكلام معقود عليهم ، فقدموا لأنهم الأهم ، والتتميم بقوله (وكانوا بعبادتهم كافرين) ، مع أن قوله (كانوا لهم أعداء) يمكن أن يفيد معنى ذلك للتصريح بكفر المعبودين بعابديهم ، فهذا أقوى في التبرؤ منهم ، وفي إلحاق الخزلان والخسرانبهم[٣].

بهذا المبحث أكون قد وصلت ـ بفضل الله علي ـ إلى نهاية هذا البحث ، سائلا الله عز وجل القبول ، والحمد لله أولا وآخرا .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٢/٢٦.

(٢) ينظر روح المعاني ١٦٥/١٣ .

(٣) ينظر آل حم (الجاثية والأحقاف) دراسة في أسرار البيان . د/ محمد أبو موسى . ص٣٤٦ ، ٣٤٧ . ط/ مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ . ٢٠١١م .

الخاتمة

يطيب لي بعد أن وصلت بفضل الله وعونه إلى ختام هذه الدراسة أن أسجل أهم النتائج التي يسر الله لي التوصل إليها وهي : .

(١) تكرار التصريح بعداوة إبليس لآدم وزوجه وذريته في أكثر من موضع ، كان الغرض منه هو تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ، والتأكيد على ثبوت عداوته لهم ، وشدة خطورته ، وزيادة تحذيرهم من اتباع وسوسته، وإظهار ما يترتب على اتباعه من الخسران .

(٢) لم يقتصر التعبير القرآني على ذكر العداء بين الجن والإنس ، بل صرح بأن العداء متحقق بين المسلمين والكافرين ، وبين المسلمين أنفسهم ، وبين الكافرين والعاصين أنفسهم ، وبين بعض بني آدم وبين الله وملائكته ورسله ، بل إن العداء لا يقتصر على كونه في الدنيا بل يكون يوم القيامة ، كما يحدث بين الأصنام وبين عابديها .

(٣) كثر وقوع لفظ (عدو) على خلاف مقتضى الظاهر بمجيئه مفردا في موقع الجمع (أعداء) ، وقد أدت صيغة الإفراد دورا مهما في الإفصاح عن وحدة الأعداء في مواجهة الحق وأنصاره ، وأنهم في شدة العداوة يد واحدة ، وعلى قلب رجل واحد ، كما ورد التعبير بصيغة الجمع (أعداء) على أصله في عدة مواضع لغرض يقتضيه سياق ومقام كل موضع .

(٤) كثر وصف العدو الأول وهو الشيطان بقوله (مبينا) زيادة في التنبيه والتأكيد على وضوح عداوته لبني آدم ، حيث كشف الله حقيقته لهم فحكى عنه تصريحه بما يفسد على بني آدم إيمانهم ، فكان بهذا عدوا ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة .

(٥) كثيرا ما يعبر النظم الحكيم عن العداوة ومشتقاتها بلفظ مجمل ، إما اعتمادا على ما سبق تفصيله في مواضع سابقة على الموضع المجمل ، وإما لوقوعها معترضة بين كلامين متصلين معنى ، وكثيرا ما يجمع بين إجمال العداوة وتفصيل مظاهرها لتقرير المعنى وتوضيحه بعد إبهامه فى نفس السامع، وتمكنه لديه فضل تمكن زيادة في التحذير من العدو ، وأخذ الحذر منه أو التوبيخ ...

(٦) تعددت الأغراض البلاغية لذكر لفظ العداوة ومشتقاته في النظم القرآني ، فمنها ما تم انتخابه لغرض الإعلام بثبوت عداوة إبليس لآدم وذريته ، وبيان شدة خطورته عليهم ، ومنها ما تم استدعاءه لغرض التعجيب من بعض بني آدم الذين اتخذوا أعداءهم أولياء من دون الله ، بالإضافة إلى توبيخهم وذمهم وتسفيه عقولهم ، ومنها ما تم انتخابه لذم المنافقين وكشف حقيقتهم بأنهم خصوم للمؤمنين ، ومنها ما جاء لتسلية النبي ـ ﷺ ـ عما كان يشاهده من عداوة قريش ، ومنها ما جاء لإزاحة ما قد يتوهم من ذكر طغيان اليهود والنصارى وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين ، ومنها تسلية الرسول ـ ﷺ ـ أن لا يهمه أمر عداوة اليهود والنصارى له ، ومنها إعلام أمة محمد ـ ﷺ ـ بأن الكافرين خصوم للمؤمنين في كل زمان ومكان لأخذ خذرهم منهم ، ومنها ثبوت عداوة فرعون لله ولموسى عليه السلام وبيان أنها كافية في سوء حاله وخسرانه ، ومنها ما جاء لغرض التحذير من مصاحبة أهل السوء وتناصرهم وتوادهم ، ومنها تذكير الأوس والخزرج بحالهم قبل الإسلام إذ كان يعادي بعضهم بعضا ، وامتنان الله عليهم بإزالة العداوة بينهم وجعلهم إخوانا متحابين ، ومنها الحث والحض على نبذ العداوة بين المسلمين بالإحسان ، ومنها ما جاء لغرض

التبرؤ من عبادة الأصنام ، وبيان أن الأصنام ستخذل عابديها وستضرهم يوم القيامة ، كحال الأعداء في إيقاع الضرر بأعدائهم .إلخ .

(٧) كثرة وصف كل من الشيطان ، وفرعون ، واليهود ، والنصارى ، والمشركين بالعدو إيذانا بكثرة مفاسدهم .

(٨) كثر دوران التعبير بصريح لفظ العداوة ومشتقاته في النظم الحكيم، وقد كانت الصفة المشبهة (عدو) هي الأكثر شيوعا في النظم الحكيم بخلاف لفظي (عداوة) ، و (أعداء) اللذين قل استعمالهما مقارنة بلفظ (عدو) .

(٩) تنوع ذكر العداوة ومشتقاتها بين الإنشاء والخبر ، وقد كثر مجي لفظ العداوة ومشتقاتها في أسلوب خبري لإفادة المخاطبين بثبوت عداوة المخبر عنه لهم ، ولإفادة التحذير منه ، وأخذ الحذر منه ، أو توبيخه ، أو التعجيب من حاله ... .

(١٠) كشف النظم القرآني عن أن العداوة بين الإنسان والشيطان دائمة ومستمرة لا انتهاء لها ، أما العداوة بين المؤمنين والكافرين فإنها تنتهي بمجرد أن يؤمنوا بالله وحده ، فبإيمانهم تنقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة .

(١١) كثر تقديم متعلق (عدو) عليه في مواضع عدة في التعبير القرآني ، إما مراعاة للانسجام والتناغم الصوتي للفواصل ، وإما لبيان أن عداوة الشيطان مخصصة لبني آدم لا لغيرهم ، وإما للتشويق إلى معرفة المتعلق وترقبه حتى يثبت ويتمكن ويستقر في الذهن ، وإما للاهتمام بالمقدم لكونه الغرض المقصود من السياق .

المصادر والمراجع

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود. ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي النيسابوري . ت/ كمال بسيوني زغلول . ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤١١ هـ .

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني .ت/ محمود محمد شاكر . مطبعة المدني بالقاهرة .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي . ط/ دار الفكر للطباعة بيروت . لبنان ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .

(٥) الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية دراسة في سور الطواسين . د/ عدنان مهدي الدليمي. ط/ دار غيداء للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م .

(٦) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ للشيخ محمد الأمين الخضري. ط/ مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

(٧) آل حم (الجاثية والأحقاف) دراسة في أسرار البيان . د/ محمد أبو موسى . ط/ مكتبة وهبة .القاهرة .الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .

(٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي. ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي .ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ .

(٩) البحر المحيط . ت/ صدقي محمد جميل . ط/ دار الفكر – بيروت ١٤٢٠ هـ .

(١٠) البرهان في علوم القرآن للزركشي . ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط/ دار المعرفة – بيروت، ١٣٩١هـ.

(١١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور . ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م .

(١٢) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية . د/علي علي صبح. ط/ المكتبة الأزهرية للتراث.

(١٣) التعريفات للجرجاني. ط/ دار الكتب العلمية بيروت –لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م .

(١٤) تفسير ابن عرفة . ت/ جلال الأسيوطي . ط/ دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان . الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م .

(١٥) تفسير الشعراوي /٣٨٧٦ . ط/ مطابع أخبار اليوم .

(١٦) التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب. ط/ دار الفكر العربي – القاهرة .

(١٧) التفسير الوسيط للزحيلي . ط/ دار الفكر – دمشق . الطبعة : الأولى – ١٤٢٢ هـ .

(١٨) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري . ت/ أحمد محمد شاكر .ط/ مؤسسة الرسالة .الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

(١٩) جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني. راجعه د/ عبدالمنعم خفاجي .ط/المكتبة العصرية . بيروت. الطبعة الثلاثون١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م .

(٢٠) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ ﷺ ـ وسننه وأيامه = صحيح البخاري . ط/دار طوق النجاة . ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

(٢١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ت/ هشام سمير البخاري . ط/ دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

(٢٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي . ط/ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

(٢٣) الحماسة المغربية لأبي العباس الجرّاوي. ت/ محمد رضوان الداية . ط/ دار الفكر المعاصر – بيروت . الطبعة الأولى ١٩٩١م .

(٢٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني . ط/ مكتبة وهبة . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

(٢٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي . ت/ الدكتور أحمد محمد الخراط . ط/ دار القلم . دمشق .

(٢٦) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني . ت/ محمود محمد شاكر أبو فهر. مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة . الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

(٢٧) روح البيان للشيخ إسماعيل حقي. ط/ دار الفكر – بيروت .

(٢٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي . ت/ علي عبد الباري عطية. ط/ دار الكتب العلمية – بيروت .الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

(٢٩) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني .ط/ مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة . عام النشر: ١٢٨٥ هـ.

(٣٠) سورة الإسراء دراسة بلاغية دلالية رسالة ماجستير للباحث : فاضل نايف سلطان . جامعة الكوفة . كلية الآداب . قسم اللغة العربية . ٢٠٠٧م.

(٣١) سور الحواميم دراسة بلاغية . د/ عبدالقادر علوش . ط/ دار الكتب العلمية بيروت . لبنان .

(٣٢) الشافية في علم التصريف لابن الحاجب ، (ومعها الوافية نظم الشافية). ت/ حسن أحمد العثمان . ط/ المكتبة المكية – مكة . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

(٣٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. ت/ أحمد عبد الغفور عطار . ط/ دار العلم للملايين – بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

(٣٤) الصورة الأدبية في القرآن . د/صلاح الدين عبد التواب، مكتبة لبنان . الطبعة الأولى ١٩٩٥ .

(٣٥) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني .د/ بسيوني عبدالفتاح فيود .جـ٢/٤٧ . ط/ مكتبة وهبة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦ م .

(٣٦) العقد الفريد لابن عبد ربه. ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

(٣٧) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية. ط/ دار الجنان للنشر .

(٣٨) في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس . علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين.ط/ دار الكتب العلمية بيروت– لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

(٣٩) القصة في القرآن الكريم . د/ محمد سيد طنطاوي.ط/نهضة مصر . الطبعة الأولى ١٩٩٦ .

(٤٠) القصر وأساليبه مع بيان أسرارها (الثلث الأول من القرآن الكريم) رسالة ماجستير للباحثة نجاح أحمد عبدالكريم صـ ٢٤٧. مخطوط في كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م.

(٤١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري. ت/عبد الرزاق المهدي .ط/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٤٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي . ت/ عدنان درويش – محمد المصري . ط/ مؤسسة الرسالة . بيروت : ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(٤٣) الكامل في اللغة والأدب للمبرد. ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط/ دار الفكر العربي – القاهرة . الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

(٤٤) لسان العرب لابن منظور. ط/ دار صادر – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٤٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير. ت/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة . ط/ دار نهضة مصر .الفجالة . القاهرة .

(٤٦) مجموعة التوحيد . أحمد بن تيمية. ط/ دار إحياء التراث .

(٤٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية. ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد . ط/ دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

(٤٨) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة . ت/ عبد الحميد هنداوي . ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

(٤٩) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد الجاوي . ت/ محمد أمين الصناوي . ط/ دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة: الأولى – ١٤١٧هـ.

(٥٠) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ = صحيح مسلم .ت/ محمد فؤاد عبد الباقي . ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٥١) معجم اللغة العربية المعاصرة . د أحمد مختار عبد الحميد عمر . ط/ عالم الكتب . الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

(٥٢) معجم ديوان الأدب للفارابي. ت/ دكتور أحمد مختار عمر . مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس . ط/ مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة : ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٥٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .ت/ صفوان عدنان الداودي . ط/ دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت . الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ .

(٥٤) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للفخر الرازي . ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

(٥٥) مقاييس اللغة لابن فارس المحقق: عبد السلام محمد هارون . ط/ دار الفكر عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٥٦) المنهاج الواضح للبلاغة. حامد عونى . ط/ المكتبة الأزهرية للتراث.

(٥٧) موسوعة تفسير سورة يوسف لعليش متولي بدوي البنى. مطابع القيس التجارية .

(٥٨) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم . د/ محمد عبد الله دراز . اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية . قدم له : د/ عبد العظيم المطعني . ط/ دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

(٥٩) النداء في القرآن الكريم .د/ معن توفيق دحام . ط/ دار الكتب العلمية.

(٦٠) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي . ت/ عبد الرزاق غالب المهدي. ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.

(٦١) النكت والعيون للماوردي. ت/السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم .ط/ دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان .

****